www.kotobarabia.com

رواية

إعدام قطار

www.kotobarabia.com

السعيد نجم

إِعْـــدَامْ قِطَـــارْ

السَّعيد نِجم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميـع حقـوق النـشر و التوزيـع الالكترونـي لهـذا المصنف محفوظـة لكتـب عربيـة. يحظـر نـقل أو إعـادة نـسخ أو إعـادة بيـع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونـيا (عبر الانترنـت أو للمكتبـات الالكترونيـة أو الأقـراص المدمجـة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابـي من كتب عربيـة. حقـوق الطبـع الـو رقى محفوظـة للمؤلف أو نـاشره طبـقا للتعاقدات السارية.

بسم الله الرحيم الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين الواحد الأحد الفرد الصمد الـذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، سـبحانه، سـبحانه إذا أراد أن يقول للشيء كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكـوت كل شيء وإليه ترجعون، والصلاة والسلام علـى المبعـوث رحمة للعالمين، الرحمة المهداة والسراج المنير عليه صلوات ربي وتسليماته عليه ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش.

أما بعد،

إن هذه القصة الأدبية التي تحمل من المواعظ والعظات من الأعمال الأدبية الهامة التي تنفع كثيرا من الناس.

والله ولي التوفيق،

* * * *

من ملايين السنين تحمل شرايين النهر العظـيم دمـاء الحياة إلى قرية تستمد لحظات عمرها لحظة بلحظة من النيل الوفي، ذلك النهر الذي ارتبطت الحياة في مصر به برباط سري: جنين وأمه!.

القرية تقبع في أحضان الطبيعة في أعماق الدلتا، هنا وضع النهر بذرة الحياة وتعهدها ككل قـرى مصـر. لا تريد القرية ترك هذه الأحضان، ولا تطمع في تغيير شـاهد من شواهد حياتها الراكدة الرتيبة.

أهل القرية والأرض أشبه بالأشجار وتربتهـا، امتـدت جذورهم بها، أي إبعاد لهم عنها يعني الاقتلاع، الموت.

القرية آهلة بالسكان، تعج بهم، إنهـم كُثـر كـالجراد، لا يعرفون عملاً غير الزراعة. ربما لا يسمعون عـن رزق يأتي عن طريق غير طريقها، اللهم إلا بعض التجار البسطاء الذين يعيشون بينهم بتجارة عليلة، يكون نقودها في أحـايين كثيرة، كيزان الذرة وحفنات الأرز والبيض.

إنهم بسطاء، أبسط ما تكون الحياة، لا يعرفون من الكرة الأرضية الممتدة غير قريتهم، ينتهي عالمهم بنهاية حدودها.

الذهاب إلى المدينة القريبة جدا من قريتهم (المنصورة)

سفر طويل تُعد له العدة وتقدم من أجله النصائح.

الشمس توقظهم، وغيابها إيذان بـالنوم: حينمـا تغيـب الشمس يلف القرية الظلام بهواجسه، ومخاوفه، وتخيلاته.

جيوب الناس خاليـة كخلـو عقـولهم مـن الأفكـار والطموحات. أخذتهم لقمة العيش المريرة، والكفاح من أجلها بعيدا عن كل العوالم.

القرية الكبيرة لا يوجد بها غير ثلاثة أو أربعة أجهـزة راديو داخل بيوت وللبيوت حرمـة تلـف إذن لـيس مـن المسموح للكثيرين بسماع الإذاعة.

الجهل يسدل على القرية أسـتاره ويفجرهـا بظلامـه الدامس الثقيل. فرض نفسه مسيطرا على أرجائها، لكن الأمر لا يخلو من بصيص للنور هنا وهناك يظهر على اسـتحياء وضعف.

ينبثق النور من كتاب هنا وهناك حيث يحفظ التلاميـذ آيات القرآن الكريم بالعصا الغليظة التي لا تعرف فرقًا بـين رأس أو قدم.

شعار الكتاتيب: العصا والفلكة.

الفلكة: ذلك الجهاز البغيض البسيط جدا، يقيد الـرجلين

معا لتتمكن العصا من الجود بالآم الدنيا كلها علـى هـاتين القدمين.

في الكُتاب يعرف الصغار الفلكة، يعرفونها تماما. الكبار ينالون شرف معرفتها في أماكن مخصصة لزبانية الشـرطة وأماكن أخرى مشابهة!!.

علاقات القرية بالعالم الخارجي مقطوعة كأن أهلها في كوكب يتوقع أهله وجود حياة في كواكـب أخـرى وتمكـن بعض أهله من الاتصال بتلك الكائنات الحية.

* * * *

كان لابد للقرية أن تُربط بشكل ما بالعـالم الخـارجي، الخارجي عنها!!.

كانت هناك قضبان حديدية عليلة، واضـحة الضـعف يسير عليها قطار عجيب أكثر ضعفًا واعتلالاً، يترنح عنـد المسيرة مرة ذات اليمين، وأخرى ذات الشمال كأنه ثَمِل، أو هاجمه نوم ثقيل غلاب، يسميه الناس القطار "الفرنساوي".

يبدو القطار المكون من عربتين: عربة قاطرة وأخـرى مقطورة وهذا ما يسمى بالقطار السريع، أما الشـكل الآخـر

فهو عبارة عن: قاطرة صغيرة تجر ما لا يزيد بحال عن أربع عربات.

القاطرة هذه يقودها اثنان: السائق في المقدمة، ومن يسمى بالعطشجي في مؤخرتها تُنقل الحركة من الموتور إلى عجلاتها عن طريق جنزير يقع بين الحين والحين في مشهد أكثر من كوميدي، فينزل العطشجي على الأثر حاملاً إياه لأكثر من ربع الكيلو متر حيث يجري تركيبه ثم يعاود الوقوع أو لا يعاود حسب الأحوال.

أما ما يسمى بالقطار المخصوص فقاطرته على ما يبدو أول قاطرة بخارية تم استغلالها تجاريا، وقودها الفحم أو الخشب، أو روث البهائم الجاف، أو أي شيء قابل للاشتعال حتى يتحول الماء بداخله إلى بخار يدب في أوصال حركتها؛ فيعطيها قوة دفع هائلة تستطيع بها جر أكثر من عشر عربات من الرمال في آخرها عربة صغيرة للركاب.

عربة الركاب بها كمساري، يقضي أغلب وقته المديد في النوم إذ أن العربة تلك خالية من الركاب في معظم الأحيان، العربة هذه أفضل مدرسة في العالم لتعليم الكمساري فن الكسل والتناوم والتثاؤب.

سائق هذا المخصوص يعيش ظروفًا فريدة لا مثيل لهـا في هذا الكون، له مساعد يعيش نفس الظروف وأسوأ قلـيلاً. إنهما يكافحان معا لإطعام نيران فرن القطار، إطعام نيران لا تشبع، ويزيد طلبها كلما أُطعمت لتعطـي الطاقـة اللازمـة للتبخير. أحيانًا ينزل أحدهما ليلتقط قطعة من خشـب كانـت عل الطريق ليضعها في النيران ليعالج بذلك نقصا في الوقود اللازم لا يدري أحد سببه.

يغطي جسم السائق ومساعده أشياء مشـبعة بـالزيوت القذرة قد تنتمي للملابس عن طريق الأزرار وغيرها، أمـا وجه كل منهما فمنقوع منقوع في كل أنواع زيوت الحركـة عدا الزيوت النظيفة!.

قطارا الركاب لا تتعدى سرعتهما في أحسن الأحـوال العشرين كيلو متر لكل ساعة، أما هذا المخصـوص الـذي أجمع الناس على تسميته "أبو وش اسود" فلا تتعدى سـرعته بحال العشرة كيلو مترات، فلو تعدى هذه السـرعة لتخلـت القضبان عن حمله بكل تأكيد، فالقضبان على سرعته البطيئة تسمع أناتها واضحة جلية، فأنى لها أن تتحمـل السـرعات الأكبر؟. إنه قطار لنقل الرمال!!.

هذا القطار العليل بأنواعه في خصام دائم مـع انتظـام المواعيد، رغم ذلك فهو الرباط الرئيسي والأساسـي الـذي يربط القرية غزيرة السكان بالمدينة، رغم أن هناك طريـق ترابي موازٍ للقضبان، إلا أن ندرة السيارات جعلته لا يستخدم إلا إذا اعتذر القطار عن إتمام مهمته لسبب مـن الأسـباب الكثيرة المتعددة، المتكررة، الغلابة.

رغم أن القطار محدود السعة، إلا أنه يخدم العديد مـن القُرى الموغلة أكثر وأكثر فيما وراء المـدن!. أكثـر مـن عشرين قرية يخدمهم القطار لكن قرية تلبانة كانـت القريـة الفصل.

عند ذهاب القطار إلى المدينة يدك بأهل تلبانة دكًـا، لا موضع لقدم، وعند الإياب يفرغ القطار. إنهـا التـي تمـلأ القطار وتُفرغه حتى سماها الناس "الصين الشعبية"!

عشرة كيلو مترات هي المسـافة بـين تلـك الصـين والمنصورة، يقطعها ذلك القطار لاهث الأنفاس فيما يقـرب من الساعة وقد يزيد.

القطار كون عالما قائما بذاتـهِ لـه أعرافـه وتقاليـده وأخلاقياته وكأنه مقاطعة من المقاطعات التي تحكـم نفسـها

ذاتيا، من حقها إصدار قوانينها الخاصة، وأن تصدر أيضـا قوانينًا للطوارئ!.

أحجار ألقيت في مياه القرية "الصين" الراكدة في بدايـة الخمسينيات حينما اتجهت مصر كلها فـي موجـة عارمـة جارفة للتعليم، اندفع على الأثر كل سكان القرية إلى تعلـيم أبنائهم مهما كان الثمن، ومهما كانت قلة الإمكانيـات ولمـا كانت في القرية مدرسة واحدة متهالكة، ضـعيفة، رطبـة، مظلمة لتعليم مبادئ الكتابة والحساب والمبادئ فقـط، كـان على أهلها الدفع بأبنائهم للتعليم في مدارس المدينة ولا وسيلة للوصول إلا ذلك القطار، الذي حشر فيه أبناء وبنات القُـرى المجاورة أيضا حشرا للوصول إلى غاية الغايـات، أقـرب مدينة إلى تلك القُرى.

أول قطار يأتي في اليوم متجها إلى المدينة هو قطـار السادسة والنصف صباحا، هذا هو الموعـد المحـدد، لكـن للقطار دائما رأي آخر في هذا الموعد حتى أنـه قـد يـأتي قبله!.

جماهير القرية تنتظر قطار الصباح كأنها جماهير دولة تنتظر مطلع رئيسها السعيد. هرج ومرج وحكايات ومجتمع خاص.

أصبح القطار مجتمعا متكاملاً.

* * * *

لابد من تعليم المرأة. المرأة مساوية للرجل تماما. صوت المرأة الانتخابي كصوت الرجل، صوت بصوت. البنت كالولد، ولِم لا تكون هي الأفضل؟!.

أفكار غريبة على القرية غُربة القروي في المدينة حين يذهب إليها لأول مرة. الأفكار هذه تسري على استحياء لكنها لا تتوقف، تتخلل وتتسرب إلى كل الأسر.

بطبيعة الأشياء لا يظل الغريب غريبا دائما، الغريب اليوم ليس غريبا غدا بل قد يصير مألوفًا بعد غد.

عرفت بعض بنات القرية طريق التعليم، كان لابد إذن أن يركبن القطار. عددهن قليل جدا بالمقارنة بالجنس الآخر، والشيء يستمد قيمته من ندرته. أصبحت البنات محط أنظار كل الزملاء وعلى الاستحواذ على قلوبهن تدور المنافسات

الطاحنة، منافسات تُنزف فيها الدماء في أحايين ليست نادرة.

بالتوازي مع نشر الأفكار التي تحض علـى ضـرورة التعليم، كان نشر الأفكار الخاصة بالحب وتعريفاته الهلاميـة المفتعلة من خلال الإذاعات التي بدأت أجهزتها هي الأخرى في الانتشار، قصص حب، مليون قيس ومليون ليلى، أحجار وأحجار، بل موجات مستمرة من الأحجار تهز كل ركن من أركان أمواج قرية كانت راكدة منذ الأجداد، الفراعنة !!.

* * * *

يأتي قطار الصباح ممتلئة مقاعده تمامـا مـن راكبـي القُرى السابقة على القرية الصين، لكن من قال أن المقاعـد هي الوحيدة التي تستوعب الركاب؟ كل جـزء مـن جسـم القطار، شبابيكه سطحه، سلالمه، بين عرباته وعلـى مكـان تصادمه توافرت خبرات الركاب للركوب عليه.

يهجم ركاب "الصين الشـعبية" علـى القطـار هجـوم مجموعة من أسود تضورت جوعا علـى فريسـة سـجينة مستسلمة. الباب هذا ليس هـو الوسـيلة الأكثـر اسـتعمالاً للركوب، الشبابيك هي الوسيلة الأكثر استعمالاً، منها يقـذف

الناس أمتعتهم أيا كانت، جوالاً من ردة، أو قشـر الأرز، أو غير ذلك ثم يقذفون بأنفسهم وعلى القاعدين عدم الشكوى، بل عدم الشروع في الشكوى، عليهم أيضا ألا تنقِل عيونهم مـا يعتمل في صدورهم وإلا كانت العواقب غير محمودة!.

عشر دقائق كاملة كان ينتظرها القطار لحشر الركـاب داخله في شكل معجِز، على كل سلم أكثر من عشرين راكبا منهم من يقف على نصف قدم وممسـكًا بطريقـة بهلوانيـة سيركية بشكل ما يجنبه الوقوع.

القطار يبدأ مغادرته للصين متجها إلى المدينة كإنسـان هاجمته خلية نحل شرسة فبدا ككتلة نحلية ضخمة، القطـار يبدو فعلاً ككتلة بشرية عجيبة الملامح من نسج غريب. الكل قد التحم بالكل والتصقت الأجساد بالأجساد والأنفاس بالأنفاس وكادت أرواح تُزهق!!.

يسير القطار ينوء بحمله، لاهثَ الأنفاس، يشكو حالـه حيث لا سمع ولا حل... العربات متصلة عن طريق خُطاف يشبك العربة بما قبلها عن طريق حلقة.

يتمكن بعض العابثين حين يهدئ القطار مـن سـرعته وتلتصق العربات ببعضها أن يضرب ذلك الخُطـاف بقدمـه

فيحرره من حلقته؛ فتنفصل عربات القطار لتبدأ الصـفارات لتنبيه السائق المسكين الذي يضطر للوقوف ثم النزول لوصل العربات من جديد، وعلى السائق أن يسمع كـل التعليقـات بأنواعها دون أن يعقب وإلا قُذف بشيء ما مجهول المصدر، أو تلقى ضربة من هنا ومن هناك ودائما المصدر مجهول.

وسطح القطار هو الملاذ الآمن لمن يريد الهـرب مـن جحيم حقيقي داخل العربات.

* * * *

الساعة السادسة قبل وصول القطـار بنصـف سـاعة. يخرج الأستاذ عِلي من بيته كعادته كل يوم منضبطًا كسـاعة بج بن، مرتديا قميصه الأبيض المكـوي بعنايـة وبنطلونـه الأسمر النظيف، وحذائه اللامع بشدة رغم تحـديات الطـين والتراب.

يحرص في كل خطوة يخطوها ألا يدوس روث بهـائم سبقت إلى حقولها، أو طين سببه ماء المطر، أو ماء غسـيل ملقى من بيت هنا وآخر هناك.

يمشي الرجل كأنه يعد خطواته، ويتحسس موضعا لقدمه

قبل أن يضعه على الأرض، وكأنه يختار نوعية الهواء الذي يستنشقه، هادئ، متأنق، لا يدري أحد كيـف يحـافظ علـى ملابسه وحذائه وسط التكدس اللاإنساني.

صوت جاموسة جامع يقرع الآذان مقرون بعصا يشـق الهواء ليلهب ظهرها تخرج من شارع جانبي ضيق. ذيلهـا الطويل القوي يظهر كأنه كان منقوعا في روثها ليلة كاملة أو عدة ليالٍ.

الجاموسة تجري مسرعة وطفل وراءها يلهبها وذيلهـا يلف يمينًا وشمالاً كرد فعل لألـم العصـا القاسـية. كانـت خطواتها أسرع بكثير من الأستاذ عِلي الهادئ الذي يتأنق في خطواته. ترفع الجاموسة ذيلها لتطوح به يمينًا وشمالاً فيطوق قميص صاحبنا، أكثر من لفة حول وسط الأسـتاذ بمنقـوع الروث. تنفض الجاموسة ذيلها لتستعيده بقوة. كاد الـذيل أن يوقعه لولا أنه حافظ على توازنه بعد عناء.

كانت المفاجأة مذهلة، أفقدت عِلي توازنه، فينسى تأنقـه وينسى كل شيء، ليجري وراء الجاموسة مناديا النـاس أن يمسكوا بها ليذهب معها إلى نقطة الشرطة.

ضربة ذيل أتت على ملابسه، أتت على أعصابه، على

هدوئه، على نظام حياته وهذا هو الأخطر. كان علِي حالـة خاصة جدا!!.

منذ أكثر من ربع القرن والرجل لم يتأخر يومـا عـن عمله، حتى إذا تخلف القطار اجتهد أيما اجتهاد حتى يصـل في الموعد المحدد، ستتكسر هذه القاعدة الآن. لابد أن يذهب إلى البيت ويغير ملابسه. حتما سيتأخر إنها الكارثة!!.

* * * *

الفقر يتسلط على القرية، سلطانه الفظيع يرسم خطـوط سطوته على الوجوه بلا رحمة. تراه أينما وجهـت عينيـك. يعلن الفقر عن نفسه بوقاحة وغرور واستهتار أنه لا يعرف الحياة!.

تراه في صفرة الوجوه، حتى يهيأ لك أن هذه الوجوه لم يزرها الدم يوما، تراه في رقعة غبية تتلطخ بها ملابس ينبغي أن تحجر عليها مصلحة الآثار، في انحناءة ظهر، حزن فـي العيون، في تقطيبة جبين تيبستْ واستقر تيبسـها فأصـبحت أقرب إلى التماثيل منها إلى الوجوه التي تجري الـدماء فـي شرايينها.

رغم قسوة الفقر وعنفوانه وتحت إمرته وتسلطه وعدوانيته يصر الناس على تعليم الأبناء!

ربما زادهم الفقر إصرارا على ذلك، فقد أيقنوا أن الفقر سببه الجهل وكلاهما يأتيان بالمرض فيكمل بذلك الثالوث المخيف، الفقر، الجهل، وتابعهما المرض.

كان القتال عليهم ضد الجهل فرضا مقدسا ليجنبوا أولادهم ما عانوه في حياتهم الجدباء القاحلة. اندفع الناس بجنون لتعليم الأولاد.

التعليم هو الحل إذن. آمن الناس بذلك آملين أن يخترق أولادهم حاجز طبقات منيع كان يفصل بين طبقة وطبقة بألواح فولاذية لا يمكن اختراقها. الأكيد أن آلة التعليم ستُحدِث على الأقل ثُقبا، سيكبر الثقب يوما بعد يوم لتختفي تلك الحواجز الفولاذية، الظالمة، الطاغوتية، إلى الأبد.

لماذا لا يقاتلون إذن ليجد أبناؤهم مكانًا تحت شمس هذا البلد؟ أخيرا عرفوا طريقًا للأمل وسط السحابات الكثيفة والضباب المهيب للفقر والجهل والظروف الفاسدة.

كان على الأبناء أن يتوجهوا إلى المدينة. يخرج هؤلاء جريا في الصباح إلى القطار. معظمهم لا يحمل قرشًا واحدا.

يحمل أكثرهم في حقيبة قميئة لُقيمات رقيقة صنعتها ربة بيت متهالكة، اللقيمات ملفوفة حول شيء ما حتى يتسنى لحاملهـا بلعها.

رغم انخفاض قيمة اشتراك الركـوب الشـهري الـذي يقترب من اللاشيء، إِذْ كانت قيمته أقل من أن توصف أجرا رمزيا، إلا أنه كان يعجز الكثيرين، فكانوا يركبـون بدونـه وبدون غيره. اضطروا بطبيعة الحال أن يخترعوا أكثر مـن طريقة للهروب من "الكُمساري" المحصل وأحيانًا التآمر عليه وضربه. ظلم في ظلم!!.

* * * *

الزحام شديد كالعادة. النـاس محشـورون حشـرا، لا مسافات على الإطلاق بين الأجساد، من أيـن المسـافات؟!. كان البرد شديدا لكن الزحام أنهى مشكلة البـرد، التصـاق الأجسام ببعضها منع تسرب البرد منعا.

ولكل ظرف مستغلوه، ولكل غابة ذئابها.

ولد صفيق غير سوي، أخذ الاحتكاك بالنساء على وجه الاحتراف. يحتك الصفيق بأية سيدة أيـا كانـت، صـغيرة،

كبيرة، مكتنزة الجسم، بارزة العظم، جميلة كانت أو قبيحـة، حتى ولو كانت قطعة من خشب كُتَب عليها هذه امرأة لأحتك بها!!.

الصفيق يحتك بإحدى السيدات. السيدة تـذوب حيـاء، لعلها حديثة عهد بركوب ذلك القطار، لم تدر مـاذا تفعـل. تحركت السيدة بعيدا عنه، التصق بها بصفاقة بالغة فهربـت مرة أخرى وثالثة ورابعة. لم تجد السيدة غير أن تجلس على الأرض رغم الزحام. لم يتركها صاحبنا. أخذ يدوسها بقدميه مع كل رقصة من رقصات القطار على قضبانه الخليعة.

لم تجد السيدة إلا أن تقف اضـطراريا. التصـق بهـا المستغل بعنف ووقاحة، اعتقد أن الحياء سيعفيها تماما مـن أي رد فعل، ستستسلم للظرف القاسي!.

على غير ما توقع فارت دمـاء جديـدة فـي وجههـا وباندفاع لا إرادي انتزعتْ ما كانت تلبسه في إحدى قـدميها وبقوة ليست قوتها، ولم تعهدها قبلاً، لم تعرف من أين أتتهـا انهالت على رأس الصفيق ضربا هستيريا. لم يسأل أحد عن السبب، فالإجابة يعرفها كل لبيب.

امتص الغبي الموقف ببرود يحسد عليه قائلاً:

- الولية اتجننت، فاكراني هيمان في جمالها، يا شـيخة اتنيلي وفوقي، والله يا شيخة ما انا راكب في الحِتة اللي انتي فيها!.

وانسل كالثعبان يبحث عن فريسة أخرى ينفث فيها سمومه.

وانخرطت السيدة في بكـاء مريـر، لعنـت الزمـان، والمكان، والظروف، والناس، ولم تنس أن تذكر أن القيامة قد اقتربت، فهذه أخلاق آخر الزمان.

* * * *

توافد المسافرون وفودا تلو وفود. زاد عـددهم حتـى صعب على الخيال كيفية اسـتيعاب القطـار لهـم، قطـار الصباح!.

أكثر الطلبة يتهلل لتأخر القطار. القليل منهم حزين لذلك وهؤلاء هم الذين قد أخذوا أمور الدراسة بالجدية اللازمـة. ستُقفل بوابات المدارس والمعاهد الأزهريـة فـي موعـدها المعتاد، وسيحرم رواد القطار من الدخول. الحرمان فرصـة مقنعة للغياب من المدارس.

بعض الطلبة يدبر بشق الأنفس ثمن تذكرة سينما ترسو،

البعض الآخر يتسكع في طرقات المدينة. بعضهم يذهب إلى مزارع للقصب على شاطئ النيل ليمـتص بعـض أعـواد القصب بقروش قليلة، يشعرون في ذلك بسـعادة غـامرة لا تدانيها سعادة – ذلك هو الترفيه!!

الموظفون والعمال مسـتاءون، ستخصـم مبـالغ مـن مرتباتهم الهشة وهذا فوق الاحتمال. إنهم يحسـدون الطلبـة على هذه اللامبالاة، ولا يفوتهم التحسر على أيام كانوا مثلهم لا يحملون هما ولا يحسبون مرتبا.

وقع القطار من على قضـيبيه قبـل القريـة المتخمـة بكيلومترات قليلة، تأكد هذا لأفراد الجمع الهائل. على كل أن يبحث عن طريق آخر غير طريق القطـار للوصـول إلـى المنصورة.

الموظفون مع الطلبة الجادون يعرفون التصرف الأمثل والطريقة الأفضل لحل هذه المشكلة... ثلاثة كيلومترات تزيد قليلاً تلك المسافة بين القرية وبين أقرب طريق مرصـوف، يمشونها على عجل ليحشروا أنفسهم في أية سـيارة أجـرة صغيرة أو حافلة أو... وتنتهي المشكلة.

الآخرون الذين يهمهم أن يتأخروا عن موعد المـدارس

وغيرها يقطعون الطريق الترابي الموازي لقضبان القطـار. يتسلون على القادمين القليلين عبره، الذين ألقت بهم ظـروف ما للسير على هذا الطريق.

يوقفون سيارات النقل، يركبون صناديقها، ذلك بعـد أن يقرأ سائق النقل الظرف، فلا يجد أي خيـر أو نتيجـة فـي الاعتراض.

سيارة ركوب صغيرة تأتي، بها ركابها وشاب صـغير يسمى التباع، التباع عمل خاص بالسائقين المصريين فقـط!. مصرح للسيارة بحمل خمسة ركاب طبعا عدا السـائق، لـم يلتزم التباع وماذا يفعل بالضـبط؟!!. أوقـف المتجمهـرون السيارة الصغيرة وقفز البعض على مؤخرتها، سارع التبـاع لدفعهم، قفزوا، وكان ذلك آخر ما يستطيع تذكره.

تلقف الصبي الأيدي والأرجل باندفاع شديد، الكل يريـد أن ينال شرف المشاركة، وفي دقيقة أو دقيقتين على الأكثـر كان الصبي لا يحتاج أي خدمة أخرى، كانت فيه بقيـة مـن قوة تكفي بالكاد أن يلقي بنفسه في السيارة منتهيا الصـلاحية للعمل في هذا اليوم وأيام أكيدة بعده. السائق يرى كل ذلـك، آثر الحياد، وتنفس الصعداء حين سمح له بمغادرة المكان!!.

* * * *

جرار زراعي يجر مقطورته الفارغة يأتي المقطـورة يمكن أن تحمله عربة قطار.

سائق الجرار يرى الجمهرة يعرف ماذا سـيحدث لـو توقف أو هدأ من سرعته الهادئة بطبيعة تقنية الجرار. السائق أتى بأقصى سرعة للجرار الذي ارتفع صوته احتجاجا علـى سوء المعاملة، لكن السائق استمر مندفعا نحو الجمع وكأنـه سائق انتحاري يهدف تفجير هذا الجمع أو طيار ياباني شارك في بيرل هاربر!.

نجحت محاولة الاختراق الجريئة، المغـامرة الهائلـة، وانفض الناس بسرعة عجيبة إلى جانبي الطريق، فقد أحسوا بجدية وصرامة المحاولة الانتحارية. بعـد اجتيـاز الجمـع بخطوات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة وفـي محاولـة لاجتياز منحنى إذا بالجرار ينقلب في مشهد سينمائي أمريكي على أعلى مستوى، ويتصاعد غبار هائل يحجـب الرؤيـة بالكامل.

يسارع الجمع بكامِلِهِ ولكن بروح أخرى. وأعادوا وضع الجرار المنقلب إلى الوضع الطبيعي في لحظات قليلة، لكـن

السائق كان قد فارق الحياة، وكأنه صعِقَ كهربائيا!.

- آدى حال الدنيا!! دنيا بنـت.. أنـا عـارف النـاس ملهوفين فيها على إيه، والله ما انا رايح المنصورة النهاردة، ويعملوا في الشغل اللـي يعملـوه، هيعملـوا إيـه يعنـي، هيشنقوني؟ يا ريت.. كانوا خلصوني من الهم اللي انا فيه!.

وقصد العامل فعلاً بيته بعد أن زلزله المشهد الهائل من فيلم الحياة!!.

* * * *

الرجل الأصلع قصير القامة، يحمـل كِرشًـا، نصـف استدارة الكرش مرن، يتشكل بأشكال متعددة فـي الزحـام. يرفع على يديه صندوقًا صغيرا، به بعض أمشـاط الشـعر البسيطة، وأمشاط خاصة باقتناص القمل، وبعـض الأغلفـة للبطاقات الشخصية وغيرها.

- يا ناس نفعونا، ما لكم نايمين كده ليه!! – الأمشـاط والفلايات دي تجيب الفانتوم من ديلها – يا ناس قولوا حاجة أي حاجة.

يرد أحد الطلبة: إحنا ناقصينك يا عم مـا تـروح فـي

داهية، وتصطبح عالصبح، صـابح عالصـبح تقـول قمـل وزفت!!

الخبرة أوحت للبائع بالانسحاب دون أن ينـبس ببنـت شفة، انسحب الرجل من المكان الذي يقف فيه هذا الأرعـن. يعرف بخبرته أنه قد يتلقى لكمات وفيرة وتضـيع بضـاعته تحت الأقدام. حدث له ذلك ذات مرة ما زالت غُصـتُها فـي الحلق.

بائع اللب النحيف المتمرس يحمل صندوقًا أكبر يضـع فيه اللب والفول السوداني في أكيـاس مرصوصـة بعنايـة ينادي:

- الحِمِش، الفول المقشر، تسـالي يـا لـب، اللـب لا بعزقه!! الطلبة يعرفونه، يعرفون أسراره.

تارة تجده يتجاوز الناس عالي الصوت وبسرعة قائلاً:

- ميل يا عم، عديني كده، الرزق يحب الخِفية.

وتارة يستكين الرجل وتنعدم حركته ويضـيع صـوته ويتظاهر بترتيب الأكياس في صندوقه العامر.

إنهم يعرفون سبب هذا السكون. فريسة انتقاهـا الـذئب بخبرته الطويلة ليحتك بها.

- خف يا روح أمك!.

سمعها بائع اللب. لم يلتفت إلى قائلها، ولا يهمه معرفة من قال، ويعرف تماما أنها موجهة له وحده، فينسـل علـى الفور كأن شيئًا لم يكن مناديا.

- الحِمِش، الفول يا عالم، تسالي، ميل يا عم انت وهوة خلينا نشوف شغلنا، تسالي!.

* * * *

رجل ضخم الجثة يجر جسمه الضخم الثقيـل بالكـاد، يجره بضجر واضح، إحدى عينيه تُرى مقفولة تماما، أُغلقت منذ زمن بعيد، والأخرى كأنها مفتوحة. تعجب كيف يـرى طريقه. يرتدي زيا رسميا لا تستطيع تحديد لونه بدقة، لكنـه رسمي على أية حال.

كيف يمكنه السير وسط هذه الكتلة البشرية المتماسكة؟! الرجل يحاول وبصوت خفيض جدا.

- تذاكر يا اخوانا.

يخرج البسطاء من إخواننا الفلاحـين تـذاكرهم التـي اشتروها بشق الأنفس، وبسرعة احتراما للـزي الرسـمي،

خصوصا وأن هذا الزي أشبه بزي عسكري البـوليس ومـا أدراك ما يمثل رجل البوليس بالنسبة لهم !!.

بينما يصيح "حمودة" ذلك الطالب المخضرم الذي يقارب في السن عددا غير قليل من مدرسيه.

- اصطبح يا عم وقول يا صبح! تذاكر إيه وزفت إيه!

يااللا روح شوف شُغلك بعيد عن هنا. انت مش شايفني واقف؟! ناس معندهاش دم صحيح!.

يتجاهل الكمساري الصوت وصاحبه، ويتناول ما يقـدم إليه من تذاكر ليضع عليها علامته الخاصة جدا به. إنه قنوع لا يطمع في أكثر مما يقدم إليـه مـن التـذاكر اختياريـا، ديمقراطي يؤمن بحق الاعتراض على طلبه للتذاكر!

ويمضي الكمساري في طريقه لاعنًا الزمن والظـروف والناس أيضا والقطار وتكوينه الجسمي.

ربما مات كل شيء فيه من زمن طويل، استكان فيه كل شيء فاستعار حياة السلاحف التي تبدو حية وكأنهـا ميتـة وميتة وكأنها حية!.

ويأتي بعده زميل له يفرز ما فرزه. المفروض أن لكـل كمساري منها عربة يفرز تذاكرها، لكن هذا النشط يعـرف

زميله، يعرف أنه يمكن القول أنه لا يعمل، لا يفرز شيئًا، لا يهمه الأمر كله، والآخر لا يعترض ولا يجد في الأمر أيـة غضاضة!

يقول النشط:

- تذاكر يا اخوانا، ورونا الاشتراكات يا حبايبنا.

- هية قصة أبو زيد يا عم الحاج، مفيش ورانا شُغلانة إلا انتم!! يرد حمودة الزعيم:

- معلهش استحملونا، لازم نشـتغل بضـمير .. يـرد الكمساري النشط الذي يعرف حمودة جيدا ويعرف سـطوته على أقرانه.

ودون أن يسأل الكمسـاري حمـودة عـن تذكرتـه أو اشتراكه حرر له تذكرة من الدفتر الذي يحمله وأعطاه إياهـا دون أن يأخذ الثمن. الآن مع الزعيم تذكرة وجب إذن علـى كل من هم في حدود سلطته أن يشتروا التذاكر من النشـط، أنهى بذلك المشكلة.

وجد حمودة الزعيم نفسه في موقـف حـرج فـأعطى الكمساري الثمن وهو يستشيط غيظًا.

شلبي يرى الكمساري النشط، يقفز مـن الشـباك إلـى

السطح، سطح القطار معد إعدادا جيدا لحمل الركاب، يمـن السير عليه بسهولة بل والجري فضلاً عن الجلوس.

- ماشي يا شلبي هتروح مني فين، بس أخاص اللي في إيدي.

يعرفه الكمساري بالاسم.

- هاأو، أحاق شنبي لو ده حصل ... يرد شلبي.

شلبي حليق الرأس، مقطع الملابس، ينتشر حبر قلم على قميصه، أكيد أنه يستعمله لأي شيء غيـر الكتابـة نـاقص الأزرار دائما، شقاوة فطرية، يبدو أنه يحلق رأسه بـالموس كل أسبوع.

رأسه عجيبة، كلها تضاريس، جبل هنـا يتبعـه سـهل هناك، وجذور شَعر هنا اجتثها الموس، تجاورهـا منـاطق جدباء تماما من الشعر، وجذوره متعددة الأشكال والمساحات متنوعة أسباب الوجود من نطحات حيوانات أليفة كالجاموس صبتْ غضبها نطحا على رأسه، وحجر أُلقِي على رأسه من قرين له أطلق الغيظ حجره على رأس شلبي .....!

ينهي الكمساري عمله في العربـة ويتفـرغ لمطـاردة شلبي. شلبي يترقبه وما أن يصعد الكمسـاري إلـى ظهـر

القطار حتى يهبط شلبي بسرعة الشمبانزي ومـا أن يهـبط الرجل حتى يصعد هو، والناس يتضاحكون ويتحملون حذاء شلبي المتسخ وهو يهبط بسرعة لا يدري ولا يهمه أين يضع حذاءه.

اقترب القطار من مشارف المدينة حيث تقبـع مدرسـة شلبي، فيقفز من القطار وقد كسب الجولة وعلى موعد مـع جولة أخرى.

يستمر الكمساري النشط في عمله بلا كلل ولا تعب ولا ملل، يصل إلى أحد الطلبة الكبار والذي يزيد عمـره عـن الغالبية العظمى، يقف بهدوء وثبات حسن الهنـدام يعـرف الكمساري أنه ما اشترى يوما تذكرة دون أن يسأله كما فعل مع حمودة الزعيم، ويخرج الطالب ثمن التذكرة بـلا كلمـة واحدة لا من هذا ولا من ذاك.

التذاكر التي فرزها الكمساري في أول العربة يتسـرب جزء منها إلى آخرها. الفرز يعني قطع جانب من التـذكرة يفعله هذا الكمساري بشكل خاص به يعرفه الجميع.

- آدي يا سيدي التـذكرة بعلمهـا نيابـة عنـك، لازم نساعدك برضه! ويتظاهر الطالب بتحريك يده كأنـه يعلـم

التذكرة.

يهز الكُمساري رأسه. يعلم أن هذه تذكرة فرزها قـبلاً، استعارها هذا الذي يقدمها له، لكن ما العمل؟. إنه لو أعـاد الفرز لانتقلت التذكرة مرة أخرى فيغُض الطرف ويستمر.

رغم كل شيء كان ناجحا في عمله إلى أبعـد الحـدود الممكنة.

* * * *

اليوم هو الثلاثاء، وما أدراك ما الثلاثاء؟ إنه أعصـب أيام الأسبوع التي هي أصلاً عصبية.

يصل القطار إلى القرية الصين ممتلئًا، متخما بأكثر من سعته التي صممه على أساسها إخواننا الخواجات في الـزمن الغابر، رغم أنه أطول بأكثر من عربة عنه في الأيام العادية، ومزود أيضا بعربة مكشوفة مصممة أصلاً للنقل، الأصل في استخدامها نقل الرمال، لكنها موجودة اليوم لنقـل البضـائع والناس، الناس والبضائع.

اليوم هو سوق الثلاثاء في مدينة المنصـورة. العربـة المكشوفة محاطة من جوانبهـا الأربعـة بحـواجز خشـبية

ارتفاعها حوالي المتر يمكن فتح هذه الحواجز عند الحاجـة لذلك. يجلس بعض الركاب على حوافها الرفيعـة وأرجلهـم على أرضية العربة. بينما يجلس بعـض الركـاب ممـن لا يخافون على ملابسهم مـن الاتسـاخ علـى أرض العربـة ويسندون ظهورهم على هذه الحواجز.

الحواف ممتلئة بالركاب الذين يفضلون هذه الجلسة كلما وجدت العربة المكشوفة.

أحد الأشقياء يفتح قفل الحواجز فترمي بكل مـن علـى حوافها بشدة على جانب الطريق، أما من يسندون ظهـورهم فمنهم من سقط إلى جانب القطار ولولا حـظٌ عـالٍ لأكلـت عجلات القطار جزءا من جسمه. رجل سمين كـان يجلـس على الأرض اندفع ظهره خارج القطار ولحسـن حظـه أو لسوء حظه لحق به شخص أضخم منه، ارتمى على فخذيـه لينقذه من السقوط.

استطاع ذلك فعلاً لكن وجهه الذي ظل متـدليا خـارج العربة أخذ يتلقى صفعات سريعة متتالية من نباتات شـوكية نامية على جانب القطار.

صفارات ونزول أناس متمرسون علـى النـزول مـن

القطار لاستطلاع أحوال من لفظتهم عربة القطار وإنقاذ مـا يمكن إنقاذه.

أحد الطلبة رفس الخُطاف الذي يوصل عربة بسـابقتها فانفصل القطار نصفين.

صفارات تليها صفارات لينتبه السائق. دقائق حتى انتبه السائق وتوقف بالقاطرة ليلحق به الجزء المنفصل الذي يسير بقوة دفع سابقة.

- ياللا يا سواق المعزة، ياللا يا سواق المعزة.

صاح التلاميذ الصغار، الوافدون الجـدد، المنضـمون حديثًا إلى الكتلة البشرية للقطار.

ويلحق بالقطار من وقعوا !!

* * * *

شهيرة بائعة الدجاج امرأة طويلة القامة ضخمة الجثـة واسعة العينين ضخمة اللسان فضلاً عن طوله. تسـتطيع أن تقول أي كلام بلا حساب للحياء أو للأعراف. الحياء كلمة لا تجد لها معنى في قواميسها. ترتـدي عـدة جلاليـب فـوق بعضها، قُل ثلاثة، خمسة قُل ما تشاء. زادها ذلك ضـخامة

على ضخامة. شـكلها يشـير إلـى الكائنـات الأسـطورية المنقرضة إشارة واضحة. كان عليها أن تتكيـف مـع جـو العربة المكشوفة في شتاء قارس!

تحتل شهيرة ما يزيد على ربع مساحة العربة المكشوفة.

تجلس شهيرة على الأرض، فتحتل مساحة قياسية، إذ أن مؤخرتها هائلة. تضع شهيرة أمامها قدرا كبيرا هـو الآخـر ممتلئ عن آخره بقشرة الأرز الناعم المختلط بالماء وقليل من الذرة.

أعداد كبيرة من البط، والأوز، والحمام، والدجاج أمامها تمسك بهم فُرادى. كانت دواجنها قبل أن تُشحن في القطـار تأكل اختياريا أما هنا فالتزغيط إجباريا.

تمد شهيرة يدها الجبارة إلى الإناء تقبض مـن الطعـام قبضة مهولة، تقذفها في تجويف كهفي هائل يسـمى فمهـا، لتحمله عضلة قوية رهيبة تُسمى لسانها، لتقذفها بعنف إلـى تجويف بطة مستسلمة تحت ثقل فخـذها الطـاغي. تسـتمر شهيرة في هذه العملية حتى تمتلئ الحوصلة وتنـتفخ ليزيـد وزن الدواجن حين بيعها نتيجة لوزن ما قذفه لسـانها فـي حويصلاتهم.

تنشغل شهيرة أحيانًا بشيء ما بينما هي مسـتمرة فـي عملية التزغيط البشعة، وأحيانًا تخطئ التقدير فيلفظ ما فـي يدها أنفاسه الأخيرة، لاعنًا الأكل، والتي أعدته، شاكيا الظلم إلى ربه، ظلم بين على رؤوس الأشهاد!

تلقي شهيرة الضحية التي ماتت من القطار، وتستمر في عملية التزغيط إلى أن تنتهي من كل دواجنها فـي برنـامج دؤوب لتحقيق ربح لا تهمها صفته أو كينونته !!.

كلمة الشيطان في قاموس شهيرة تعني "شـلبي"! ذلـك الطالب حليق كـل شـيء، الـرأس، والكتـب، والأفكـار، والأهداف، فكل كتبه فقدت أغلفتها وكثيرا من صفحاتها مـن زمن بعيد، ومعلوماته حليقة الحواجب، بلا ملامح.

ينتظر شلبي بشوق شهيرة من الثلاثاء إلـى الثلاثـاء. اعتقد البعض أن شلبي مبعوث السماء ليأخذ حـق الـدواجن المهيضة من شهيرة!

حينما يصل قطار صباح الثلاثاء يسـارع شـلبي إلـى العربة المكشوفة لتلتقط عيناه شهيرة بلا عنـاء، شـهيرة لا يمكن لأي عين أن تُخطئها! يحييها شلبي تحية الصباح:

- صباح الزفت يا شهيرة يا أم جاموس !.

- نهار أبوك أسود من شعر راسك (لم تنتبه إلى أنه حليق العشر).

- مالك ومال أبويا يا مرة يا جاموسة انتي.

- لو أنت راجل خليني بس أمسكك بأيديه وانا أحط كل أكل البط في كرشك يا بايظ. انت شكل طالب انت؟!.

تستفز كلماتها شلبي. يحاول أن يخلي بينه وبين الناس ليصل إليها بافتعال واضح، ليدخل في روع شهيرة أنه لولا الناس واعتراضهم له لوصل إليها.

- خوفْتِني يا وله!.

- ماشي ها اوريكي أنا هاعمل إيه!.

أمسك شلبي بإحدى البطات وألقى بها من القطار، وهم أن يمسك بأخرى لكن شهيرة كانت قد وصلت إليه، دفعته بلا عناء على الأقفاص. يقع شلبي على الأقفاص، كيف يمكنه أن يقاوم الدفعة الهائلة؟ يضحك الناس، ضحكة ارتسمت على وجوههم رغم كل الظروف:

- دي وزن تقيل يا بني ... شوفلك لعبة على أدك ... هوه حد يحط نفسه تحت قَطْر ... قوم، قوم، تعيش وتاخد غيرها ... ويعلق آخر:

- كويس اللي ما وقعتش على راسك، كنت اتزحلقـت تاني.

تهاب التعليقات شلبي فيحاول معاودة الانقضاض علـى شهيرة ليجد نفسه ثانية على الأقفاص، وقد أمسكت شـهيرة بحقيبته وألقت بها من القطار.

يحاول شلبي أن ينزل من القطار، القطار مسرع، يتردد شلبي ثم يلقي بنفسه ولا يستطيع أن يحتفظ بتوازنه، فيـرتطم بالأرض بقوة أحدثت به سحجات كبيرة.

- إلهي كان القطر عدى مِن عليه، إلهي مـا يشـوف نجاح ولا مكسب طول عمره. ربنا يوريني فيه يوم. صرخت شهيرة.

ثم تجلس ثانية وتستمر في عملها الشائن لتنتهي حلقـة هذا الثلاثاء لتبدأ حلقة أخرى في ثلاثاء قادم من مسلسـلهما الشهير في القطار العليل.

وتستمر مسيرة القطار رتيبة متناغمـة، تصـدر عـن عجلاته عند ارتطامها في سيرها بالفراغات بـين وصـلات القضبان، تك، تاك، تك، تاك، طوال الرحلة.

إيقاع موسيقي يشكل خلفية موسـيقية مناسـبة تمامـا

للموكب الحافل.

يصل القطار أخيرا إلى المحطة النهائية، وينزل الركاب إلى خارجه حيث عالم آخر، وهواء مختلـف، وأخلاقيـات أخرى، وكأن لحظة النزول لحظة ميلاد تقذف بالمولود إلـى حياة أخرى غير حياة الرحم المظلمة !!.

* * * *

المحطة الرئيسية في المنصورة مساحة ضخمة تتجمـع فيها أربعة خطوط بالتوازي. تقف قطارات الأربعة خطـوط فيها جنبا إلى جنب، وعلى نهاية كل خط حديدي صـدادات قوية تصد القطار إذا حـاول أن يتجـاوز نهايـة قضـبانه الحديدية. بها المباني الإدارية، ومبنى الورشة لإصلاح مـا يمكن إصلاحه بالإضافة إلى الساحة التي تقف بها القطارات. أرض المحطة الرئيسية سواء الورشة وغيرها يغطيها الزيت المتسخ إلى درجة التشبع، سقف صالة القطارات عبارة عـن جمالون حديدي مطلي باللون الأسود ليتناسق لونه مع لـون زيت الأرضية الأسود. وجد العنكبوت في هذا السقف خيـر ملاذ.

إذا حان موعد قيام أحد القطـارات يضـرب جـرس المحطة إيذانًا بقيامه فتجد أعدادا كبيرة تهجم على القطار من أبوابه وشبابيكه وحواجز العربات المكشوفة، حتـى لا يكـاد المرء يرى من جسم القطار شيئًا.

المحطة أشبه بالسوق الكبير، صوت الباعـة الجـائلين يخترق أذنيك على الدوام، يسهل حركتهم عدم وجود رصيف بين القطار والقطار، إنه مسطح أرضي وصفت عليه قضبان لأربعة قطارات متجاورة.

معظم البائعين من الكهول! ... لا يدري أحد لماذا !.

هذه سيدة سمراء، قصيرة، نحيفة، لا تقوى على السـير إلا بعناء شديد، ضعف بصرها استغرقها، ملابسها سـمراء أيضا. تبيع السندوتشات:

- ويتش، ويتش، سلام مش عايزة كلام. ويتش الحجـر من فوق، ويتش سلام مش عايزة كلام.

تنادي على بضاعتها مختصرة كلمـة السـاندويتش ولا يدري أحد ما معنى كلمة الحجر من فوق، ولا سـلام مـش عايزة كلام !.

وهذا الذي يعرض حلوياته في صينية سـوداء وبيـده

منشة يداعب بها الذباب ويداعبه الذباب أيضـا، ولا يضـن برذاذ متطاير من فمه على بضاعته؛ فيحفظ لهـا رطوبتهـا اللازمة.

وذلك الكفيف الذي تسحبه بنت صغيرة، ويحمل في يديه كيسا وحيدا وزنه لا يتجاوز الكيلو جرام الواحد على رأسـه طاقية قماش بيضاء، وعلى عينيه نظارة سـوداء، وشـاربه اتخذ رسم شارب هتلر أو شارلي شابلن، صوته أجش ينادي:

- معايا باستلية نادلر، معايا باستلية نادلر.

لا يغير هذه العبارة ولا ينطق غيرها، يمشي كالإنسـان الآلي قبل اختراع الإنسان الآلي بحقبة طويلـة. للمصـريين سبق على العالمين في نواحٍ كثيرة!.

أما الطفلة التي تصاحبه فلا يسمع لها صوت، ولا يرى على وجهها أي تعبير غير الاستسلام التام لما هي فيه، كأنما هي الأخرى "روبوت" من جيل جديد!.

باعة اللب، باعة الجرائد، النفتالين ... أنواع كثيرة تباع أو على الأصح معروضة للبيع، لكن حركة الشراء بطيئـة، بطيئة.

يتجول في المحطة رجل عظيم الكرش، أحمر الوجـه،

ضخم الشدقين منتفخهما كأن في فمه كُرتين للتنس، واحـدة ناحية اليمين والأخرى ناحية الشمال.

يحمل في يده خيزرانة رفيعة يحركها دائما أثناء سيره، ويضرب بها أحيانًا نهايات معطفه الذي تُرى عليه معظم أيام العام.

تتحرك عيناه يمينًا، شمالاً، وللأمام، وللخلف في الجهات الأربع. يرفع الرجل رأسا هائلة تحملها قاعدة تتناسب معها.

يتجول الرجل في المحطة كأنها عزبة والده، وكأن كـل من فيها من العاملين الذين يتفقدهم ويبت في أمورهم.

يقف أحيانًا أمام بوابة المحطة حيث يوجد موظف مهمته أن يرى تذاكر الداخلين، يقف كأنه يعضد ويشد على يديه.

محترفو التهرب أوجدوا ألف باب وباب للـدخول إلـى المحطة الرئيسية عبر سور مهترئ.

عطوة الكرش لا يدري أحد ما وظيفته بالضبط! شـكله يلقي به في سلة المخبرين، لكنه لا ينتمي إلى الشرطة. لـو كان موظفًا إداريا لكان له مكتب، أو أمسك يوما بأحد الدفاتر أو حتى بوريقة.

الجلابية التي يرتديها تأخـذ بـه إلـى طبقـة العمـال

"الفراشين" لكن ما وجده أحد يوما يمسك بمكنسـة أو يحمـل كوبا من الشاي إلى أحد.

إنه لا يرى إلا ممسكًا بأحد التلاميذ الصغار ملوحا لـه بالخيزرانة مصطحبا إياه إلى غرفـة إداريـة ليحـرر لـه الموظف قسيمة غرامة لدخوله المحطة بدون تذكرة. يخـرج من تلك الغرفة ليمسك بآخر.

لابد أنه أوجد لنفسه هذه المهمة وتركه رؤسـاؤه لأنـه نجح فيها، فهو دائما يرى ممسكًا بأحد المستضـعفين الـذين ينكمشون خوفًا من هذا المتسلط الذي يحتمي بوجـوده فـي المحطة، لا يغادرها، وخوفًا من الفضيحة أمام الناس.

عطوة الكرش يمسك بحمودة وصديقه يأخـذهما إلـى غرفة الغرامات، الموظف لم يكن موجودا. أغلـق عطـوة عليهما الباب:

- طلع يا واد انت وهوة الفلوس وابقوا تعالوا بعد شوية خدوا القسايم.

- فلوس مين يا عم صلي ع النبي: هوة فين الموظف، إيه هتاكلنا؟

تعود عطوة أن يرى الخوف في العيـون والاستسـلام

التام، وأن يسمع من الفريسة كلمات الرجاء والدعوات، لكـن حمودة بعيد عن كل هذا، تحمل عيناه نظرة الاستهتار.

عطوة يرفع خيزرانته يطوح بها فـي الهـواء ليضـع الخوف المطلوب في العيون الجامدة.

- نزل يا عم الهبابة دي وخليك حِلو.

محاولة أخرى من عطوة.

- يا عم قلت لك خليك حِلو، خلي يومك يعدي.

عطوة يرفع الخيزرانة قاصدا ضربا حقيقيا هذه المرة.

- ياللا يا صاحبي، مفيش فايدة.

واجتمع حمودة وصاحبه، تعاونا معا وأعطـوا عطـوة الكرش نصيبا وافرا سريعا.

ضربناه قلم واحد يبقى ضربناه، طلعنا روح أمه برضه ضربناه.. كده ضربناه وكده ضـربناه، يبقـى لازم نخدمـه كويس. ياللا يا صاحبي.. قالها حمودة لصديقه.

- روح في داهية يا واد انت وهوة، روحوا في سـتين داهية ماليش دعوة بيكم. قال عطوة، محـاولاً إنقـاذ نفسـه ومتفاديا لأي أثر من ضرب على وجهه حتى لا تسقط الهالة

التي رسمتها الظروف له، حتى لا يضيع سـلطانًا، حتـى لا يفقد هذه الوظيفة التي يبدو أن له وحده براءة اختراعها.

لم ينس حمودة وهو خارج أن يداعب كرش عطوة.

خرج حمودة وصاحبه وبعدهما بقليل خرج عطوة يلوح بخيزرانته، لكن شيئًا ما كان قد حدث بداخله.

* * * *

أحد القطارات في المحطة الرئيسية يرجع للخلف، رجل يمشي كالمخدر، كالتائه بين الصدادة الضخمة وبين القطـار. أصوات كثيرة تحذره لكن هموما كثيرة كانـت قـد ألغـت حواسه ولم ينتبه ولن ينتبه في دنيانا بعد ذلـك فقـد طحنـه القطار بينه وبين الصدادة الرهيبة.

غُطي الرجل بورق جرائد إلـى أن تـتم الإجـراءات الرسمية وينتقل إلى قريته ليدفن.

قضاء وقدر! ... من يرفع قضية على القضاء والقدر؟!

يصبح أبناؤه أكثر جوعا ... قضاء وقدر! ... تترمـل زوجته ... قضاء وقدر! ... استراح الرجل من دنيانـا ... قضاء وقدر!.

قطار العودة الرئيسي هو قطار الثالثـة بعـد الظهـر. حينذاك تكون المدارس قد أنهت يومها، وانتهى الموظفون من أعمالهم، وانفضت الأسواق واستعد الجميع للعودة إلى قراهم تاركين المدينة لأهلها.

من الركاب من فاته قطار السـاعة الواحـدة (القطـار السابق) ومنهم من جاء قبل الثالثة بقليل.

الأفواج الهائلة تنتظر القطار الآتي من رحلته الـذهاب لاهث الأنفاس في الثانية والنصف ليعود بهم في الثالثة.

حين يرى الركاب القطار آتيا مـن رحلتـه المرهقـة يهجمون عليه جريا في ماراثون أشبه ما يكون بالمـاراثون الحقيقي الذي تُعقد له الجوائز. يفوز الطلبة بالسباق مناسـب ودافعهم لحجز المقاعد أقوى، فكل منهم يحجز لِلَيلاه.

قبل أن يقف القطار في المحطة الرئيسية تكـون كـل شبابيكه قد استعملت مرة ومرات لاقتحامـه واحـتلال كـل مقاعده في مشهد اقتحام حقيقي.

الركاب الآتون لا يستطيعون النزول إلا بشق الأنفـس، لكن ما لا يعجبه الحال عليه أن يستعمل وسيلة مواصـلات أخرى!.

يرضى كل قيس من ليلى يتمناها بابتسامة مصطنعة أو حقيقية، فهي ابتسامة على كـل حـال، تُرضـي غـروره، وتريحه، وتلهب خياله وعواطفه.

يندفع باقي الركاب من الذين لا يليق بهم الجري استقبالاً للقطارات لاعتبارات وقار أو لظروف صحية.

أما الطالبات فيقصدن القطار على مهـل ودلال وثقـة واطمئنان، يدخلن أخيرا كنجمات حفل طال انتظارهن.

ينادي أحد الطلبة الجالسين طالبة سمينة ممتلئـة عـن آخرها باللحم في زمن عز فيه الخُبز!.

- اتفضلي مكاني.

اتجهت السمينة حيث النداء بكل هدوء، وبوجـه جامـد خال من التعبيرات لتجلس.

لم تنطق بكلمة شُكر واحدة، بل جلسـت بتعـالٍ كـأن مناديها خادمها المطيع.

مالت على صديقتها وهي تجلس وقالت لهـا بصـوت مسموع:

- شوفي لك حمار تاني يقعدك!.

وصلت الجملة واضحة لصاحبنا الذي كان يمني نفسـه بكلمة شكر تظل ترن في أذنيه كأعذب ما تكون الأصـوات حتى اليوم التالي ليستزيد منها، أو حتى تعبير صامت يرتسم على هذا الوجه الذي سبب الشحم استدارته.

احمر وجهه الأصفر الذي سببت صفرته كل الأمراض المتوطنة في مصر مجتمعة، متعاونة، متكاتفة.

كيف احمر هذا الوجه؟ ... من أين جاءت إليـه تلـك الدماء الغزيرة؟ إنها قدرة الخالق الأعظم!.

يغلي الفتى كالمِرجل، يتصبب عرقًا، يتساءل: كيف يرد الإهانة لتلك البقرة الآدمية التي داست بحوافرها القاسية على كرامته؟

حاول التماسك فقد تعود علـى كظـم الغـيظ، تجبـره الظروف على ذلك، فهو يفتقد القوة فـي الغالـب علـى رد الصاع صاعين:

- لو سمحتي، نسيت منديلي تحتك.

جمعت نفسها وقامت. جلس الفتـى مسـرعا ليسـتعيد المكان.

- يا ريت تشوفوا حمارين يقعدوكم انتم الاثنين.

قد تأتي الحلول من حيث لا نعلم !!.

* * * *

بائعة دجاج أخرى. فليست شهيرة هي بائعـة الـدجاج الوحيدة في القطار. البائعة تشبه شهيرة في الضخامة حتـى يظن أنهما أختان.

تركت العربة المكشوفة لشهيرة فهي لا تريد الاحتكـاك بها.

باعت دواجنها وتخلص منها لكنها لم تستطع الـتخلص من رائحة الدواجن، الرائحة ليست للبيع!. السيدة لا تكتـرث لهذه الصغائر، فهي قد باعت وربحت وأُتخمت بالنقود.

السيدة سمينة ثقيلة الوزن لا تستطيع تحمل الوقوف ولا تستطيع الجلوس على الأرض في هذا الزحام. لابد لهـا إذن من الجلوس.

تنظر يمنيا ويسارا قائلة:

- مفيش حد عايز يقعدني يا اولاد؟. إيه مـا نعجـبش يعني؟ ... لازم ألبس فستان عشان اقعد؟...

تجلس السيدة فوق أحد الشبان، على فخذيه.

تجاهل الفتى كل شيء وظل جامدا كلـوح الـثلج فـي مكانه.

- ده أنت بارد برود يا وله!!. واللهِ ما عندك دم.

- أنا مش بارد .... ومين بقى اللي ماعندوش دم؟!.

تنهض السيدة وقد أحست بالهزيمة لتقصد المكان الـذي كانت جالسة فيه، لينهض الشاب الخجول مرة أخرى قبل أن تلقِي عليه ذلك الثقل الهائل!.

* * * *

بائعة الجبن القريش، تلك التي تجمع ذلك الجـبن مـن الفلاحات بطريقة خاصة دون أية اعتبارات أخرى، صـحية كانت أو غيرها. بعد كل عملية بيع تمسح يدها في جلبابهـا، فيشع جلبابها بعد ذلك رائحة تزكم الأنوف.

السيدة ممتلئة الجسم في غير ترهل.

تقف في الزحام، فقد تعـودت علـى ذلـك وتسـتطيع الوقوف.

ثعاب من ثعالب الزحام تعجبـه اسـتدارتها، يزحـف وراءها. يستطيع بطريقته أن يصل إليها.

وصل الثعلب إليها، احتك بها جسا للنـبض. لـم تأبـه السيدة كثيرا.

انتهى وقت جس النبض وتمادى الرجل، تململت السيدة وتحركت بعيدا عله يرتدع.

زحف وراءها وزاد التصاقه بها حـرارةً حتـى نسـي أشياء كثيرة.

فجأة تستدير بائعة الجبن، وبجرأة لا تخلـو أبـدا مـن وقاحة تمسكه بغيظ، وعنف، وقسوة من منطقة حساسة جـدا في جسمه، وتضغط بكل قواها.

يصرخ الثعلب بكل ما أوتي من قوة، صرخة سمعها كل من كان في العربة.

- مش انا، مش انا.

* * * *

يخلص الثعلب نفسه من مقابض السيدة، ويسـرع إلـى الشباك، إلى سطح القطار. ومن يومها اكتسب لقبا جديدا.

أصبح اسمه: "عبده مش انا".

تخلصت شهيرة من دواجنها، ودست نقودها في حافظة

قماشية طويلة تتوه في محيط صدرها الضخم، فتحمي بـذلك نفسها من السرقة.

واضح أنها سعيدة، فرحة، مسرورة. لابد أنها باعت كما كانت تتمنى تركب في عربتها المفضلة "العربة المكشوفة".

في العودة هي أكثر حرية، كل ما معها مجموعة أقفاص فارغة تضعها في ركن من أركان العربة وتتفرغ لمداعباتها.

مجموعة من التلاميذ الصغار، الجالسين فـوق سـطح القطار يوجهون أنظارهم حيث شهيرة، ينتظـرون برنـامج العودة الأسبوعي الذي تعده وتقدمه وتخرجه. يتعجل الصغار البرنامج. إنهم لا يتحملون الانتظار فيهتفون:

- شهيرة العِجلَة، شهيرة العِجلَة ......

الهتاف يلفت الأنظار، ويـدخل شـهيرة بسـرعة فـي برنامجها.

تُخرج شهيرة لسانًا ضخما قلما تجد له مثـيلاً، وتسـب الهاتفين بأقذع أنواع السباب وتخـص الأعضـاء التناسـلية لأمهاتهم بالجزء الأكبر من ردحِها.

تُدير شهيرة ظهرها الضـخم لتتفـرغ بـذلك للعبتهـا الأسبوعية المفضلة التي تصطاد فيها أحد إخواننا الفلاحـين

ليكون محلاً لسخريتها، وكأنها تقدم فاصلاً كوميديا هائلاً معه على مسرح العربة.

لا يهم شهيرة أي رد فعل كان، يصـدر عـن الرجـل الضحية.

تعتقد بقدرتها على صد أي هجوم كاعتقاد بارليف فـي قدرة خطه الشهير على قناتنا الحبيبة قبل أن يلقَى في مزبلـة التاريخ.

يحاول أحد الفلاحين الصعود إلى العربة المشكوفة، يبدو أنه لا يعرف شهيرة. يعني هذا أنه لم يرتد القطار قبل ذلـك كثيرا، وبالتالي كون أنسب لمسرح اليوم.

شهيرة تمد يدها الضخمة لتساعد الرجل على الصـعود إلى العربة.

يتردد الرجل ... إنها يد سيدة!

- امسك يا راجل .. ما عيب الا العيب.

يمسك الرجل بيدها ويصعد.

الرجل قصير ممتلئ على رأسه طاقيـة بنيـة طويلـة يقترب طولها من نصف المتر وجلابية صوف مـن قمـاش

غالي الثمن.

تمسك شهيرة بإحدى وجنتيه وتقول:

يا اختي عليها، إيه الحلاوة دي يا راجل، تتجوزني؟!.

الحياء يعقد لسان الرجل. لو فعلت هذا معه في قريته لكان له معها شأن آخر، ولكن ردود الأفعال ترتبط بالزمان والمكان والظروف.

الرجل يجد أن الظرف غير مناسب للرد الذي يراه مناسبا. يتجاوز شهيرة ليقف في مكان آخر من العربة بعيدا عنها. أصبح ظهره لها وطاقيته في موازاة عينيها.

تخطف الطاقية من على رأس الرجل. عمل يتوقعه التلاميذ الصغار (المشاهدين) فوق سطح القطار، فيطلقون الصفارات وتتطاير الضحكات ويطلبون منها المزيد.

يهجم الرجل على شهيرة. خطفها للطاقية عنده في حكم هتك العرض، والأعراض دونها الدماء.

شهيرة تتوقع ذلك الهجوم، خبرة اكتسبتها كانت مستعدة للصد بدفعتها الشهيرة. دفعت الرجل بكلتا يديها كموجة هائلة لا يقف أمامها شيء. سقط الرجل! لابد أن شيئًا ما كان وراءه ساعد على سقوطه، فالرجل متين البنيان لا يسقط

بسهولة، لكنه سقط.

يحاول الرجل بعد قيامه على عجل الانقضاض عليهـا فقد ذهب عنه هول المفاجأة وقيود الحياء ... مزقت شـهيرة أستار الحياء!.

لكن بعض الناس كانوا منه أسبق. حالوا بينـه وبينهـا. حاولوا تهدئته وامتصاص ثورته والرجل ينتفض مـن شـدة الانفعال.

لم يترك الناس الرجل إلا بعد أن هدأ تماما.

- منك لله يا شهيرة!

يهتف جماهير التلاميذ بلا توقف ولا ملل.

- شهيرة العِجلة ... شهيرة العِجلة ...

شهيرة تسبهم وتلوح لهم بيدها.

أصبح من غير المنطقي أن تبحث عن رجل آخر تفرغ فيه شحنة غيظها.

يستمر التلاميذ.

- شهيرة العِجلة ... شهيرة العِجلة ...

بعد محاولات عديدة منها للرد على هتـافهم بالسـباب

عجزت عن إيقافهم.

تناسب دموعها! ......

صحيح: الناس على أشكالها تبكي!.

* * * *

شاب نحيف، بالغ النحافة، ضيق الكتفين، طويل الرقبـة كالزرافة. يتحرى مكان إحدى البنـات السـمينات قبـل أن يركب، فإذا وجدها توجه إلى حيث تجلس بعـد أن يصـنف شعره بمشط أسود صغير بين أسنانه الكثير مـن الشـوائب. المشط هذا يلازمه دائما، لا تدري متى صنع، ولا كيف يقوم بوظيفته! يدهن شعره بزيت غريب الرائحة، غريب مصدره.

يرفع أحد حاجبيه دون الآخر! ... ويغني.

- وعانقتني.. وألقت برأسها فوق كتفي

تباعدت.. وتدانت.. كإصبعين في كفي

الصوت حشرجة كريهة، الشـكل رسـم كاريكـاتري لإنسان، ولولا الحرج لألقت الفتاة بنفسها من الشباك.

لم ينجح غناء الشاب في تفتيت قلب العـذراء وإثـارة عواطفها وشجونها.

يبحث صاحبنا عن دور آخر – يفتعل مشاجرة بلا أدنى سبب مع أحد الواقفين انتقاه هو، فوجه له الكلام.

- بتبص لي ليه كده يـا روح أمـك؟ ... إيـه مـش عاجبك؟!.

- يا حبيبي أنا مالي ومالك، انت مـش فـي دمـاغي خالص.

- إيه مش في دماغي دي، مش مالي عينيك يعني؟. لأ، لأ انت ما تعرفنيش .. ده أنا أطلع (.....) أمك.

ويحاول الانقضاض على زميله، بينما السـمينة تمـط شفاهها.

يتدخل أحد الموظفين الذي ضايقه صوت الفتى وشـكله وتجنيه ويهبط بلطمة هائلة على قفا مطرب العواطف.

يا أخي إحنا مستحملين قرفك من ساعتها، قلنـا يمكـن يكون عندك شوية دم وتبطل لوحدك، لكن يظهر مفيش فايدة.

صفعة على قفا (المطرب الفتوة) أنهت كل شـيء فـي لحظات، تقبلها صاحبها بلا رد فعل إلا إحناء رأسـه تجـاه الأرض ليظهر قفاه الطويل كأرض صالحة للطمات أخـرى تهبط عليها! ...

الكُتلة البشرية تتحرك من المحطة، لا شيء يرى مـن جسم القطار.

يقوى القطار بالكاد على التحرك، أصوات حادة تصدر من أنات القضبان تقرع الآذان، تنخفض القضبان وتعلو ثانية كلما مرت عليها العجلات. تزيد سرعة القطار قليلاً قَليلاً.

مدرس يجري، يحاول اللحاق بالقطار، يمكنه ذلك لـو كان أسرع قليلاً، فقد كان يفعل ذلك كثيرا أيام كـان طالبـا، الآن عرف الشحم طريقه إلى جسمه، فزاد الوزن، قوة دفعه تقل شيئًا فشيئًا، بينما قوة دفع القطار على العكس تزيد شـيئًا فشيئًا.

لم يلحق بالقطار.

- لا إله إلا الله. القطر ده معانِدني، آجي بدري ييجـي متأخر، آجي متأخر ييجي بدري. يا للا، كل شيء نصيب.

قالها وصدره يعلو ويهبط وتسمع أنفاسه بوضوح بـالغ كأنه أحد مرضى الربو الشعبي عندما يستيقظ مرضهم.

ما زال القطار يرى، يتابعه المدرس بعينيه أسفًا.

صراخٌ عالٍ يسمع، صرخات بشرية مختلطة بصرخات قضبان، بغبار كثيف عالٍ... يهدأ الغبار قليلاً... تُرى العربة

الأمامية التي هي القاطرة في نفس الوقت نائمة على جنبهـا في الأرض الزراعية الملاصقة للقضبان.

إنها الكارثة.....

كارثة ليست غريبة على الركاب، إنها متكـررة علـى فترات غير منتظمة.

إنها كالزلزال.. تهدم، تقتل، تدمر، وتختار وقتها بنفسها.

تتحرك شفاه المدرس، يهمس لنفسه.

- الحمد لله، الحمد لله، لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع، الحمد لله، الحمد لله.

مات الكثيرون في الحال ما بين العربة والأرض، ربما كان من ماتوا أفضل حالاً من الكثيرين!!

أحيانًا يكون الموت هو الحل الأمثل لكثير من المشـاكل والصعاب!!.

أشياء كثيرة تناثرت هنا وهناك، دجاجـة فـك أسـرها تجري مذعورة، وديك، بط، أوز، عِجل رضيع صـغير مـا زال يرسف في قيوده يحاول التخاص منها، إذ يرى الخطـر حوله في كل مكان، جبن متناثر، أجولة متعددة المحتويـات،

وسلال.

هنا، الإنسان هو الأغلى .... رغم ما تمثله هذه الأشياء من قيمة عند أصحابها في مجتمع فقير، فقير، إلا أن أحدا لم ينظر إليها، لم يعرها أي اهتمام، أو أدنى التفات.

هذه لحظة تتجلى فيها الحقائق، تعلـو فيهـا المشـاعر الإنسانية فوق الأشياء.

هرع الفلاحون من كل مكان، ترك الكل ما فـي يـده، نسي الكل ما يشغله التفوا حول القطار يحاولون إنقـاذ مـا يمكن إنقاذه.

من مات سكت، فقد صوته وأنينه، فقد الحياة.

رجل سمين يئن تارة، يستغيث تارة، جزء من جسـمه بين العربة النائمة والأرض، بجانبه فتـاة رائعـة الجمـال، فاحمة الشعر، تتدلى خصلات منه على الجبين الأبيض. لابد أنها تركب القطار لأول مرة، فمن في مثل جمالها لا تُجهـل أبدا في هذا القطار. وجهها ورقبتها خارج حيز القطار بينما باقي جسمها ما بين العربة والأرض.

تسلم الفتاة الروح أمام الجماهير، تسلمها في صمت وهم عليها شهود.

أغمض أحد الواقفين عينيها بيده ليختفي وميضها إلـى الأبد.

والرجل الآخر يستغيث، يتعـاون النـاس علـى رفـع العربة، رغم كثرتهم لا يستطيعون، والرجل يصرخ من ألـم لا يعرف مداه إلا الله، ومن خوف من شبح الموت ليس عنه ببعيد.

وتتوالى الوفود من كل مكان، ويتزايد النـاس وتخـتلط الأصوات وتزيد الاقتراحات لرفع العربة.

ساقية قريبة تدور، تجرها بقرة في مدار دائري.

صاحب البقرة تركها وترك الساقية وكل شيء ملبيا نداء النجدة.

حينما رأى الرجل المحشور، لمع في رأسه الحل.

نادى الرجل على اثنين، حرروا البقرة من سجن الساقية وحملوا ما يسمونه (عزال الساقية) الخشبي وهو عبارة عـن عمودين قويين من خشب شجر مصري.

وضع الناس العمودين ما بين العربة والأرض وتعاونوا بحماس بالغ، عشرة سنتيمترات ترتفع العربة وتسمع طقطقة الخشب الرافع، يسحب آخرون الرجل غير آبهين بصرخاته.

تزيد طقطقات الخشب وتكسر واحدة .... كادت تحـدث كارثة أخرى.

عادت العربة ثانية إلى ما كانت عليه، فوق الأموات.

المهم، أنقذ الناس الرجل، الإنقاذ يعني أنه يتنفس، ربما أتوا على عاموده الفقري وهم يسحبونه، لا يهم.

إنه الآن خارج جحيم العربة والأرض.

يبقى حال الأموات على ما هو عليه حتى إشعار آخر.

الأموات أفضل، الأموات لا يشكون!!.

سائق القطار عرفوه بين الأموات.

كان السائق قد قفز من القطار حينما تأكد من سـقوطه، الأكيد أن أكثر من تجربة سابقة مماثلة كانت له فـي عهـده الطويل بقيادة القطارات.

انقلب عليه القطار هذه المرة لينهي علاقة طويلة كانت بينهما، لكن الفلكلور الشعبي في القرية الصين أبى ذلك. أبى إلا أن تستمر العلاقة، وإلى الأبد.

- "يا شايل الديزل على قلبك يا حسن"

كان اسم السائق حسن.

أصبحت هذه العبارة من الفلكلور الشعبي تغنيها الفتيات في الحقول، وحين العودة أو الذهاب للحقل. وفي مناسـبات أخرى.

- "يا شايل الديل على قلبك يا حسن"!

* * * *

أنزل المطر جام غضبه على قرية تلبانـة (الصـين). البيوت مبنية كلها تقريبا من الطوب اللبن، اللهـم إلا بعـض البيوت التي لا يزيد عددها عن عدد أصابع اليد الواحدة.

تحولت القرية، شوارعها، وداخل معظم البيـوت إلـى بركة من طين، تستطيع تمييز رائحة الطين بعد المطر.

لم تُغْن الأسقف التي تنوء بما تحمل من قش الأرز عن تساقط الماء، من بقعة هنا تخلل الماء عيدان القش فيها، وبقع أخرى عرفت طريقها هي أيضا خلال القش.

فقد السقف وظيفته أمام غزو المطر، واجتاح الماء كـل شيء داخل البيوت، فطرد النوم من العيون، وأغرق الفراش، وغير خواص الخبز والدقيق، وتسلل إلى أجولة الأرز.

ماء، وظلام، وبرد، وليل طويل ...!!

يقف الناس مكتوفي الأيدي، مسـهدون أمـام غضـب المطر.

يتحول المطر الذي يهب الحياة، يتحول هنا إلى نقمـة، إلى غضب السماء على أهل الأرض!.

من رحمة الله أن هذا الحال لا يدوم أكثر من أسبوع إلى أسبوعين في العام .. يتحمل الناس أقدارهم!.

في مثل هذه الأيام تُعزل القرية تماما عن العالم، كـأن القدر قطعها بمطره عن الأرض، وقذف بها إلى كوكب آخر لم يكتشفه الإنسان بعد، فالقطار يتعطل أكثر ما يكون في مثل هذه الأيام.

يتأثر هو الآخر بالمطر، يهزه البرد، يرعـده ويفكـك أوصاله.

تنكمش قضبانه خوفًا من رعد مصاحب للمطر فتـدفن رأسها كالسلحفاة في الطين.

* * * *

في ليلة كثيفة المطر، شديدة الرعد، مثيـرة للأوحـال تعسرت ولادة إحدى السيدات!

السيدات في القرية يلـدن بـلا مسـاعدة طبيـة مـن متخصصين، قد تلد سيدة في الحقل وتعود إلى بيتها حاملـة مولودها، وكأن شيئًا لم يكن.

الداية المسنة تنتهي عندها كل مشـكلات الـولادة فـي القرية إلا أقل القليل من الحالات.

تعسرت ولادة السيدة في هذه الليلة المطيـرة، وتعسـر سير القطار (الموعد الأخير من القطار).

لم تلد السيدة ولن تلد على الإطلاق !!.

غادرت الزمان إلى حيث لا زمان لتوضع فـي بطـن الأرض التي نبتت منها، عادت إلى حيث النشأة الأولى.

* * * *

في صباح الليالي المطيرة يفضل الـبعض البقـاء فـي القرية دون الذهاب إلى المدينـة، تجنبـا لمتاعـب كثيـرة، خصوصا تعطل القطار.

الغالبية العظمى تصر على برنامجها اليومي المعتاد.

مشكلة المشاكل أن تصل من بيتك إلى المحطة، عليـك أن تجتاز الأهوال الطينية اللازجة الرهيبة وفخاخها. يكفيك فخ

واحد ليأتي على ملابسك فيفقدها الصلاحية للسفر!.

الحاجة أم الاختراع!.

يخترع كل واحد طريقة خاصة للوصول إلى المحطـة دون خسائر معطلة.

هذا يركب حمارا ليصل إلى المحطة نظيـف الحـذاء، ليأخذ المرافق الحمار بعد ذلك. المرافق يرفع ثيابه وغالبا ما يكون قد ترك حذاءه في البيت، ليتمكن من اقتحام الطين بلا هوادة، ولا خوف، ولا كسل.

هذا يركب الحمار كما يركـب الفـارس، وذاك يثبـت بالحمار يكاد يحتضن ظهره كأن الحمار سوف يلقيـه علـى الطين في كل خطوة.

تتعدد الحمير وتتعدد إمكانات راكبيها!.

ينزل هذا الحمار قاذفًا براكبـه، متخلصـا منـه إلـى الأرض. وأي أرض!.

وذاك تنزلق إحدى أرجله لكنه يسـتطيع إنقـاذ نفسـه، فترتعد فرائس راكبه.

لكن النسبة الكبيرة تصل بسلام إلى المحطـة، فخبـرة

الحمير ليست بالخبرة اليسيرة! ... من ينكر خبرة الحمير !!.

هذا لا يملك حمارا، ولا يستطيع، أو لا يريد اسـتعارة أحد الحمير. في قدميه حذاء ويحمل مرافقه حذاء آخر لـه. يمشي وقد رفع بنطلونه إلى مستوى ركبتيه حتى إذا وصـل هدفه أنزل البنطلون ولبس الحذاء المحظي.

لكن راكبي الحمير وحملة الأحذية الاحتيـاطي نسـبتهم قليلة: لا تتعدى الربع. الغالبية لا يفارقهم نفس الحذاء سـيء الحظ.

يحمل ذلك الحذاء بمزيج عجيب من كل مكونات القشرة الأرضية، يفقد شكله ويتحول إلى نمـوذج صـغير لدبابـة طينية!.

* * * *

يصل القطار على مهل كأنما يخشى التزلق على الطين!

طالب أزهري أعرج، لا تـدري كيـف وصـل إلـى المحطة، وما زال شال عمامته ناصـع البيـاض. يسـارع الطالب إلى اقتحام القطار عند وصوله مع المقتحمين، تخونه إحدى قدميه، يسقط، يدس وجهه دسـا فـي الطـين كثيـر

المكونات.

يضحك أكثر الواقفين، يقهقهون، يعلقون:

- إيه يا خويا اللي طلعك من بيـتكم النهـاردة، الـدنيا هتتهد يعني لو غبت النهاردة، فالح قوي يا خويا؟!.

- تلاقي فيه فيلم فيه منظـرين ثلاثـة حلـوين رايـح يشوفه .. يكمل آخر.

- آه منهم الأزهرية آه ... دول ولاد جنية.

يا عم تلاقيه كان بيجري بسرعة عشان يلحق يقف ورا واحدة حلوة، الحمد لله اللي ربنا جابه الأرض.

- قوم يا شيخ قرد، تعيش وتاخُد غيرها.

كان جرح الضحك أشد وقعا وإيلاما من جرح سـقوطه على الأرض، كانت الكلمات سهاما نافذة إلى القلب.

لو لم يكن أعرجا لكان الأمر أهون بكثير.

لو يعرف الضاحكون مـا اقترفـوا! ... لـو يعـرف الضحاكون ماذا أصابت سهامهم! ... إذن لبكوا عليه.

إنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان!.

نهض أصحاب النخوة إليه، أوقفوه سريعا إلـى غرفـة

ناظر المحطة الضئيلة المظلمة منخفضة السقف مبتعدين بـه عن سهام المستهزئين، بعد أن ردوا إليهم بعض سهامهم.

تجاهلوا القطار بشهامة وظلـوا مـع أخينـا، مسـحوا دموعه، هونوا الأمر عليه.

انتظر معه أحدهم وسارع الآخر إلـى بيـت الطالـب ليحضر له ملابس أخرى يستطيع الرجوع بها إلى بيته.

عاد المنكوب إلى بيته وقلبه مثخن بجراح تحتاج إلـى وقت طويل جدا للشفاء إن كان لها شفاء!.

يعرف هو باقي حلقات المسلسل النكد.

سيصبح مادة للتفكه والسخرية على مصاطب المجتمـع الغبي الراكد.

سيصبح مادة مثيرة للضحك في أكثر من مكـان فـي القرية في جلسات الحشيش التي تحلو وتطيب في مثل هـذه الليالي السوداء، الباردة، المظلمة، الطويلة.

ستعرفون أيها الأغبياء وقع أسِنة ألسنتكم علـى قلبـي، قسوتكم البالغة. أكيد سيعرف بعضكم ذلك، فالزمن يدور.

سيعرف إذا جاد عليه القدر بعاهة مماثلة وسخر النـاس

منه.

سيعرف ... وأتمنى ألا يعرف منكم أحد.

"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"

* * * *

قوافل الركاب تهاجم القطار من كل جانـب كـالغزاة، ناسين ما تحمله أحذيتهم من أوساخ وقذى.

يقفز البعض من الشباك وينـزل أحـدهم فـوق أحـد الجالسين بحذائه المثقل الذي اختفت معالمه خلف الطين الذي ما زال مشبعا بالماء.

لمس الحذاء رأس الرجل مارا بصدره، مرتكزا بعد ذلك على فخذه.

جاد الحذاء على الرجل من رأسه حتى منتصف جسمه بطين يكفي لاتساخ ملابس قبيلة بكاملها.

لم يلتفت الشقي، لم يعتذر، كأنه ما فعل شيئًا!.

يعرف الرجل أمثال هذا الشقي، عاين قبلاً شـكل الأذى الذي يلحقونه بأمثاله إذا اعترض على شيء. إنه وحيد وهـم كثر.

من قطار ما بعد الصين وليس من القطار القبلي.

قدر القطار الأول أن يتحمل، ولا يبدي ضجرا. فراعنة القطار لا يسمحون بذلك. الركاب أمثاله يعيشون طيلة فتـرة ركوبهم كعامة الشعب في زمن الفراعنة، هذا الشـقي مـن هؤلاء الفراعنة!

لكن ما نال الرجل دفعه دفعا للعتاب الـذي حـاول أن يكون رقيقًا على قدر ما يستطيع.

- إيه يا ابني اللي انت عملته ده؟

- إيه يا عم اللي حصل؟ يعني لابس البدلة والكرافتة يا خويا؟! دي حتى جلابية ما تساويش شلن.

ترضى أبوك يتعمل فيه كده؟.

- أبويا.. يا راجل اصطبح ع الصـبح وانـت شـكلك وحش كده، ما تروح في داهية تغير جلابيتك وترجع، فيهـا إيه يعني؟ حظك كده!... نصيبك كده!.

- يا ابني أروح إزاي كده. انت عارف أنا مـين؟ أنـا عمدة.

- طز فيك يا حضرة العمدة وفي اللي خلفوك كمان.

وإذا بخطاف حمودة يغرس في جزء من كتف الرجل متجاوزا ما يغطيه من ملابس، جاذبا الرجل إلى ممر العربة، وألفُ يدٍ تنقض على الرجل تذيقه ما لم يذقه طوال حياته.

خُطاف حمودة مشبوك في حبل قطني قوي ورفيع مفتول جيدا، والخُطاف حاد السن جدا، لا يفارق حمودة. مشهور به، فقد استحدثه، يلقيه على ضحيته بحرفية بالغة، بحيث يلتقط سِنه ملابس الضحية مع عمق ليس بالقليل في الجسم.

يجذب بعدها الضحية المتألمة جدا ناحيته في الوقت الذي يقابلها بقبضة يده في الوجه... تنتهي الضحية....

لا يدري لماذا يفعل ذلك؟ وما الهدف؟

حمودة يتدرب على رمي الخُطاف، يلقيه على الحوائط، على أشياء كثيرة، يحزن جدا إذا لم يلامس السن الهدف في كل مرة.

لابد أن يكون السن في مواجهة الضحية وألا تكون الرمية فاشلة... حمودة لا يحب الفشل.

دقائق قليلة صهرت العمدة صهرا، حولته إلى إنسان آخر...

- لا مؤاخذة يا حضرة العمدة !!...

أجولة من قشر الأرز تُلقَى على الركاب من الشـبابيك تسبق حامليها، عبوات أخرى تحمل كافة الأشياء تُلقى حـين وقوف القطار في القرية الرئيسية، تسقط فـوق رأس، فـوق كتف، في أي مكان... قدر!.

يتضاءل الركاب المبتلون في مقاعدهم، ينشدون النجـاة كأنهم أسرى حرب. إنهم فعلاً أسرى، لكنهم أسـرى الميـزة المكانية تلك التي استغلها الرعناء، الجهلاء، الأغبيـاء مـن القرية الأم.

يعيش بعض الركاب في عصر الفراعنة كأن القطار قد انسل توا عبر الأزمان من عصر الفراعنة !...

* * * *

يتحرك القطار مـن القريـة الأم قاصـدا المنصـورة مصحوبا بأنين القضبان المألوف لدى الجميع. تبدأ العربـات في التراقص على القضبان مع إيقاع لازم (تيك، تاك، تيـك، تاك).

كل عربة تتراقص كما تشاء قد تميل يمينًا مع سـابقتها

كما في الرقص الجماعي وقد تختلف شيئًا مـا.... تـرقص فرديا.

الجو بارد، احمـرت لـه الآذان، وأصـابع الأيـدي، واستشاطت له أغشية الأنوف.

الهواء البارد يهاجم الركاب من كل مكان. أحيانًا مـن أسفل. الأطراف هي التي تتأثر، لكن الأجسام يدفئ بعضـها بعضا. تكفي برودة الأطراف!....

صمت نادر، (فالصمت في القطار نادر) يغطي المكان.

صوت يسمع فجأة:

- إيه يا جدعان – إحنا باردانين، عايزين ندفي نفسنا – مفيش حد عايز يضرب النهاردة ولا إيه؟ إيه مش هنشـتغل؟ نفضل عطلانين يعني؟ الإيد العطلانة نجسة!

هيه، ماحدش يقول أنا؟...

التفاته إلى مصدر الصوت، ربما يرى النـاس عنتـرة الجديد! لكن مصدر الصوت كان شابا: محيط ساعده وهـو محيط عظام الساعد – لا شيء فوق العظام إلا غلاف مـن جلد رقيق.

الوجه بادي الصفرة، به أخاديد كثيرة، أخاديد رسـمها الفقر، وأخرى لأظافر غُرست فيه بغيظ، وثالثة لطفح جلدي ترك أثره العميق، وبقع البلاجرا منتشرة ظاهرة.

ملابسه تدل على فقر سليط، كما يدل جلد وجهه.

ربما تغيرت الصفات الجسمية للأبطال – كـل شـيء يتغير – فلماذا لا يتغير شكل المغاوير؟!.

فرعون المكان، لا يتحداه أحد الرعية، وغير مسـموح أن يتكلم معه ندا لنـد. خُطـاف حمـودة وراءه يحميـه إذا اعترضه أحد. حمودة لا يتكلم كثيرا، يتدخل فقط في الوقـت الذي يراه مناسبا لا يسمع له صوت، تحسبه أهدأ مـن فـي القطار... أفعاله أكثر بكثير من كلامه.

عنترة الحديث يتفحص الوجوه، يسير في مملكته، يبحث عن ضحية وصل إلى أحد السلالم حيث يتعلق عليه أكثر من عشرين راكبا في مشهد أكروباتي.

انتقى أحد المتعقلين.

أخذ صاحبنا يتسلى عليه، يصفعه مرة على قفاه، مـرة على رأسه وكلما زاد ضيق المضـروب، زاد عنتـرة أذاه، والوالد يكتم غيظًا بحجم برج القاهرة.

طوال الرحلة يتسلى الأرعـن علـى نفـس الشـخص وتضاف لجبل الغيظ جبال وجبال.

وصل القطار إلى مشـارف المنصـورة، يهـدئ مـن سرعته، اعتاد كل من هدفه من المدينة إلـى المشـارف أن ينزل، وأحيانًا يركبون في العودة.

المظلوم ينزل من القطار، ويتعلق بعنترة بكل ما أوتـي من قوة.

ينزل عنترة نزولاً اضطراريا، وحيدا، لم ينتبـه أحـد أقرانه إلى اختطافه.

بمجرد نزول الفرعون إلى الأرض، ضاع ملكه وتبخر سلطانه، وإذا به يبكي قبل أن ينيله الفتى أي ضربة مـن أي نوع.

يرتعش كل شيء في جسمه كأن شللاً رعاشـًا أصـاب جسمه بكامله!.

الناس في المدينة يلتفون حول الشابين.

- سيبه يا ابني، ده باين عليه غلبان، انت والفقر هتبقوا عليه؟!. قالها أحد الرجال وهو يمشي دون توقف.

- انت بتعيط زينا، يا ولَه؟! – عنترة إيه، هيه هزلَتْ!!.

يا عالم انتم مش ها تصدقوا كان شكله إيه مـن دقيقـة واحدة.

- سيبه بقَى... المسامح كريم.

وكان كريما معه. لكمه لكمة واحدة... أخذها الفرعـون الذي كان حظه هذه المرة سيئًا إذ وقع في يد شخص من أهل مشارف المدينة، شخص لن يركب القطار ثانية.

* * * *

في العودة عادت لعنترة قوته من جديد، عـادت إليـه نفخته إياها، الانفصام الذي يعيش فيه مع رفاقه ومساعديه.

هؤلاء انضموا تحت لـواء هـذا الانفصـام البغـيض متكاتفين على إيذاء من يتوسمون فيه تحمل أذاهم بلا مقاومة، ولا رد فعل من أي نوع. من يؤمنون بأن هذا الأذى قدر من الأقدار.

تعود البسطاء تحمل مثل هذا من آلاف السنين. أِلفُوه من كل فرعون صغير يملك حتى أبسط السلطات وأقلها أهميـة وتأثيرا! – مسألة تاريخية !!...

طالب ينظر لكل الناس من فوق، لا أحد يدانيه. يشـعر مرزوق بالتميز. طوله المخيف هو كل ما يميزه.

أطول من مترين ليس بالقليل، عريض الكتفين، طويـل الرقبة، صغير حجم الرأس، لا يتناسب حجم رأسه مع هـذا الطول الرهيب.

سأله أحد الزملاء إن كان طوله هذا يضايقه، خصوصا وأن البعض يتخذه مادة للتفكه.

قال:

- لا واللهِ. بالعكس مرة كنت ماشي في شارع البحر في المنصورة لقيت واحد طويل قوي قـوي، لحقتـه، حاولـت المقارنة بين طولي وطوله، كان هو أطول قليلاً جدا. زعلت زعل يومها......!.

سؤال كان مألوفًا جدا لديه:

ع- ندك طراوة يا مرزوق؟ - أخبار الطقس إيه عندك النهاردة........؟.

كان مرزوق يبتسم... إنه متميز!.

مرزوق كانت له صـولات مـع المحشـي (محشـي

الكُرنْب). أطيب شيء عنده في الوجود التهام المحشي.

أمه كانت تعرف ذلك، كانت تخصه وحده بآنية كاملـة متوسطة الحجم من هذا المحشي. مرة واحدة لا تكفي، عـدة مرات في الليلة الواحدة يتردد فيها على آنية المحشي حتـى يأتي عليها بكاملها.

يحشي معدته إلى أقصى ما تستطيع معدة بشر.

في الصباح يركب القطار مع الراكبين، الزحام المعتاد، برد الشتاء وغازات تتسال من مرزوق يتضاءل تأثير رائحة البيض الفاسد كثيرا بجانبها.

الناس يتأففون. يضع الكثيرون أيـديهم علـى أنـوفهم، يحاولون استنشاق هواء آخر غير هذا المختلط بهذه الرائحـة القاتلة، لكن لا فائدة. أما هو فيمكنه طوله من استنشاق هواء قادم مباشرة من الشبابيك التي لا تعرف الغلق!.

يلاحظ صديقه، الذي لا يركب أبدا بجانبه لأنه يعـرف قوة هذه الغازات التي تلازم مرزوق، ولا يحلو لها الخـروج إلا في الزحام.

- يقول لآخر: يظهر مرزوق عملها.

- يخرب بيته... مفيش حد في العالم تقدر بطنه تنـتج

كمية الغازات دي، بالنوعية دي.

- الحمد لله اللي ما كنتش راكب جنبه... أكيـد كانـت روحي طلعت!.

- الحمد لله، تصور! الحاجات دي بتبقى أحيانًا مفيدة!.

- يا راجل حرام عليك!

- أقوالك: مرزوق في امتحان السنة اللي فاتت قعد جنبه لزق مراقب من اللي همه، ما خلاهوش يغش ولا كلمة، أكثر من ساعة قاعد على قلبه، راح مرزوق راقْعه واحدة غازات سامة، الراجل ساب المكان كُله وراح، مرزوق شاف شُـغله وجاب درجة زي الفل... يعني كل شيء ممكن يبقى مفيد!.

* * * *

وهذا حمدي الذي كان حلاقًا وسعى لتعيينه عاملاً فـي إحدى المصالح الحكومية. نحيف الجسم، لا هو بالطويل ولا بالقصير، مع انحناءة خفيفة، أصلع قليلاً، لا تخلو عيناه مـن بريق الذكاء.

حمدي موسوعة نكات لا تنفذ، ذاكرة جبارة يحفظ بهـا نكت الدنيا ويضيف إليها نكاتًا خفيفة الظل من إنتاجه هو.

النكات في معظمها جنسية، بالإضافة إلى النكات التـي تطلق على إخواننا الصعايدة.

مكانه في القطار أحب الأمـاكن، تنطلـق الضـحكات الخالصة من حوله، طريقة إلقاءه للنكات رائعة، وخفة دمـه فطرية لا تُضارع.

أسعد ما يسعده أن يضحك الناس وأفضل ما يسعى إليه نكتة جديدة... سريع البديهة يدفع بسرعة عنه من يحاول أن يجعله هو نفسه موضوع سخرية.

ينجح حمدي في إضافة بسمة على وجوه متعطشة لهـا وينجح في حلق الحزن من رؤوس مرافقيه كما يحلق شـعر تلك الرؤوس إذا دفعت تحت يده في صالونه المتواضع جدا.

* * * *

وهذا الذي ينتمي إلى القرية التي تربى فيهـا الممثـل الكوميدي الراحل الضيف أحمد (تمي الأمديد). هو في نفـس جسم الراحل يعتقد أن روح الراحل قد حلت به، تجده وأحـد حاجبيه مرفوعا جدا، والآخر في وضعه الطبيعـي، وبسـمة عريضة على وجهه دائما لا تفارقه، لا يسكت لحظة طـوال

رحلته ذهابا وعودة. يسـتجدي البسـمات، ويمنـي نفسـه باعتراف رسمي بموهوبة كوميدية!.

.... بينه وبني حمدي شوط بعيد....

* * * *

صبري طالب من القرية صاحبة العدد الوفير، والبـاع الطويل في المشاغبات التي تحـدث فـي القطـار. مفتـول الساعدين، عريض الكتفين، منتفخ الصدر والرقبـة، ضـخم الكفين، ملامحه رياضية واضح العنفوان.

أصر والده على تعليمه إصرارا بالغًا... إنه أول فـرد في الأسرة ينال قسطًا من التعليم منذ الفراعنة الأجداد!.

راجع صبري والده كثيرا في مسألة التعلـيم، لا يريـد استكمال العملية التعليمية ولا يطيق، لا يطيق رؤية كتـاب، ولا يستطيع أن يكبت تلك الطاقة الحيوية الهائلة في حجـرة ليمتص رحيق كتاب.

كل ميسر لما خُلق له!.... صـبري يعتقـد أنـه مـا خلق.....

لا يتصور أبدا أنه يمكن أن يكون طبيبـا... لا يحـب

ذلك... أو مهندسا، أو محاميا.... لو كان في اسـتطاعته أن يختار مهنة بين هذه المهن ما اختار واحدة منها!.

لو طُلب منه شق جبل لقال أنا لها، أنا لها!.

تحت إصرار والده، وطول السـنين أنهـى المرحلـة الإعدادية.

هنا انتهى وقود الرحلة، توقفت مسيرة تعليمه توقفًـا لا سبيل إلى إنهائه!.

حبه لركوب القطار، الحب القوي، هون عليه سـنوات طويلة قضاها حتى يحصل على الشهادة الإعدادية.

كان صوت القطار (تك، تاك، تك، تاك) أعـذب إيقـاع يسمعه، كان يدغدغ حواسه، يزوره في أحلامه.

كانت صورة القضبان مع أعمدة التليفونـات الخشـبية بأسلاكها المتعددة التي توازي القضبان أجمل صورة لمنظر طبيعي طبع في وجدانه، بل نقشت كالنقش على الحجر.

كان يذهب إلى محطة القرية يمتع نفسه بمنظر ركـوب الناس ونزولهم وإيقاع القطار وصوته ورقصته المعتادة فـي سيره.

كان صبري بطل معارك حقيقية في القطار، كـالوحش الكاسر إذا احتدم القتال، ضربات قوية، فائقة القوة، مـؤثرة وشبه مدروسة.

كانت العربة المكشوفة مسرحا لأكثر نزالاته والتلاميـذ الصغار يشاهدون المعارك وهم على سطح العربة التي تسبق تلك المكشوفة مبهورون. تمنى كل واحـد مـنهم أن يكـون صبري.

كم تحسس كل منهم محيط ذراعه ممنيا نفسـه بـنفس المحيط الهائل لذراع صبري يوما ما من الأيام.

لم يكن يستمد سطوته هذه لكونه مـن القريـة الأم، أو لوجوده في بيئة القطار أصلح البيئات لإخراج نمور ورقيـة محدودة صلاحية الزمان والمكان.

الشوارع حول مدرسته شهدت معاركه كمـا شـهدتها العربة المكشوفة تماما.

كان يقف في المحطة الرئيسية حيث تتجمع كل خطوط الشركة صاحبة القطارات وبالتالي يجتمع كل فتوات الخطوط ويصيح:

- مفيش حد مستتخن نفسه، حد عامل فتوة على خلـق

الله الغلابة، اللي شايف نفسه، اللي شايف نفسه بـس ييجـي أوريه نفسه.

ولا يرد أحد.

كان نسرا إذا ظهر اختفت صغار الطيور، لكـن أكثـر معاركه كان يدخلها مضطرا.

لم يكن هناك داعٍ ليشتبك مع حمودة أو يشتبك حمـودة معه، كلاهما له مجاله، على العكس كانا متعاونين مـؤثرين، بمثابة رأسي الحربة لفريق القرية إذا فرضت مباراة قتاليـة نفسها.

أحدهما يقدر للآخر قبضته الحديديـة، والآخـر يقـدر الخُطاف الحديدي وعدم الثرثرة، فعقدت بينهما صداقة علـى أسس ليس فيها نفاق يفرضه الخوف أو الجبن.

ترك تعليمه، فكان لابد أن يجنـد، هـذا مـا تفرضـه القوانين.

بعد أدائه للواجب التجنيدي، بحث عـن عمـل، عـن وظيفة.

كانت سعادته حقيقية حين عين مفتشًا في القطار الـذي شهد أيام صباه وشاركه أحلام طفولته، وارتبطت به أحلـى

ذكرياته.

كم تكلم مع زملائه المجندين عن القطـار، والقطـار، والقطار حتى ظنوا أنه يسكنه ليل نهـار لا يفارقـه، أو أن القطار يسكن فيه!.

يعرف ويعرفه معظم مستقلي القطار.

* * * *

أخلص صبري تماما فـي أداء عملـه، لطـول عهـده بالقطار يعرف كل حِيل التهرب، تعقب كل متهرب من دفـع ثمن تذكرة الركوب.

كانت له ذاكرة حادة وقدرات خاصة جـدا فـي تتبـع المتهربين، حتى أصبح في فترة قصيرة جدا أفضل مفتشـي الشركة بلا منازع.

استهواه هذا العمل تماما واستغرق كل حياته، لـولا أن النوم ضروري ما غادر القطار إلى البيت. كان القطار أحب أماكن الأرض إليه.

قال له أحد زملائه الذين يدعون أنهم يعملون بقدر مـا يتقاضون وهم يتقاضون أقل القليل:

- خِفّ شوية يا صبري، انت واخد المسألة جد قـوي، همة يعني هيكتبوا القطر بإسمك، دي شركة ما تستاهل غير الحرق.

- يعني لا بتشتغلوا. ولا عايزين حد يشتغل!

يرد عليه راكب لا يعرف صبري، لكنه قد عرف مقدار ما يناله زملاء صبري من السخرية، إلـى الضـرب حتـى الإدماء، ثم القفز من القطار، حتى إذا قفـز الضـارب مـن القطار ضاع كل شيء وأمر الكمساري إلى الله!.

سأله صبري:

- تذكرتك يا أستاذ.

تجاهله الرجل كأنه لم يسمع شيئًا.

- تذكرتك يا بيه... يا باشا.

- إيه يا أخي، حلمك شوية، هنطير، فوت يا أخي بعـد شوية أكون لقيتها.

- أنا مش فاضيلك يا بيه، حقي أقولك فـين التـذكرة، واجب عليك توريني التذكرة.

- انت هتعلمني؟! ما تغور يا أخي دي الوقت، وتيجـي

بعد شوية.

تكفلت لكمات صبري القوية المحكمة بالرد على الراكب الوقح، نزلت عليه كالسيل، في لحظات قليلة كان في حالة لا تمكنه من الرد... كان درسا قاسيا للأستاذ، ليحترم بعد ذلـك كل موظفي الدولة، وليس كل كمساريي فقط!.

* * * *

اقترب صبري من طالبين يعرفهما فهما من أبناء قريته، يعرف أن كليهما لم يشتر تذكرة.

طالما أن صبري هو الكمساري لابد لهما من دفع ثمـن التذكرة، ها هو صبري قادم إليهما، تفاديا لـه اتفقـا علـى سيناريو مشاجرة تبدو لصبري حقيقية.

كان إخراج المشاجرة متقنًا حتى ظنهـا النـاس فعـلاً حقيقية.

صبري يصل إليهما.

- طلع تذكرتك يا حبيبي انت وهوة، وبعدين دغـدغوا بعض، الحركات دي مش عليه يا روح أُمك انـت وهـوة. التذكرة يا وله.

انفضت المشاجرة على الفور ودفع كل منهما !!.

يمر صبري بسهولة بين الركاب، لا يعوقـه الزحـام، يصطاد من يركبون على الشباك. أثناء ركوبه تهبط يده على قفا هذا الذي يحتك بسيدة تبدو محترمة، ويعدل مـن وضـع هذا، يساعد مريضا، يسلم على هذا ويحييه ذاك.

يتقدم إليه بعض من اعتادوا التهرب مختـارين. يأخـذ منهم النقود ويحرر قسيمة لكل مندفع. يصر علـى تحريـر القسيمة إصراره على الدفع....

احترمه الركاب المحترمون، واحترمهم، قدروه وقدرهم، طبيعي أن يصادقه البعض يسألون عليه ويسأل عليهم.

أحب صبري القطار كأنه ليلاه. كان لا يطلب أجـازة، ولا يأخذ حتى أجازاته الرسمية المقررة رغم قسوة ظـروف العمل الشديدة وساعاته التي تزيد على الأربع عشرة سـاعة يوميا.

يشعر صبري أن القطار يبادلـه حبـا بحـب وشـوقًا بشوق... قد ينبض للآلة قلب بالحب!!

أصبح صبري جزءا من مكونات القطار، كمـا أصـبح الآخر جزءا من تكوينه!.

* * * *

المحطة الرئيسية للقطار "الفرنساوي" نهر هائل يصـب مياهه في المنصورة صباحا، لكنه يسترجعها في المساء.

أمواجه هائلة من البشر قادمة من أعمق الأعماق إلـى المنصورة، كأنها فراشات يستقطبها النور.

كل قطار يصل تقرأه على وجه المدينة...

المدينة: مقر المعاهد التعليمية، جميع المحـاكم، إدارات الشرطة المركزية، الأسواق، الأطباء، المستشفيات المركزية، حتى راقصات الدرجة الأخيرة اللائي يحيين أفراحهم.

وعند المصب تصخب أصوات الحياة، تزهو ألوانهـا، يصل إلى كل الآذان إيقاعها، والأسواق هي دفوف الحيـاة، أعلى آلاتها صوتًا.

وتتوالد المجتمعات من مجتمعات، القُرى، عالم القطار، المحطة الرئيسية، فمجتمع ما حول المحطة.

وعند المصب تلتقط أسماك!...

عربة يد صغيرة تظهر خـارج المحطـة عنـد رأس المصب، تظهر حينما يحين ميعاد العودة، حين الظهر إلى ما بعد العصر بقليل.

لا تدري من أين ظهرت تلك العربة، عليها عدد لا بأس به من وريقات ملفوفة حول بعضها، مشَكلة شكلاً يزيد عـن علبة الكبريت، ويقل حجما عن علبة السجائر.

وشخص أسمر طويل، توحي ملامح وجهه بكل ما يمت للإجرام بصلة، كأن وجهه لم يعرف ماء للغسيل، ولا حتـى ماء المطر. يمسك في يده سكينًا لزوم العمل.

يخلط بكلتا يديه وبحركة دائرية العاب الورقيـة التـي أمامه، صائحا بصوت فظ خشن:

- قرب جرب، قرب جرب، شوف حظك، معانا تكسب، معانا تشوف الهنا، قرب جرب.

ويلتف حوله رجال يحملون نفس ملامح وجهه الـتعس لكنهم جميعا أقل منه طولاً (رجال لعبة الثلاث ورقات).

- أجرب أنا حظي يا عم صفوت.

من المجموعة دي، ولا دي، ولا دي، هنا بنصف جنيه، هنا بجنيه، هنا بخمسة. يرد صفوت.

ويدفع الرجل مختارا إحدى الفئات. ويمد يده إلى العلبة التي تنتمي إلى الفئة المختارة، يأخذ علبة يتوسم فيها المكسب يعطيها لصفوت، يفتحها صفوت بسكينه ويصيح؟

الله أكبر، الله أكبر، حظك حلو يا عم الحاج، دفعت نص كسبت خمسة، تلعب معانا تاني؟.

ويزداد الضجيج، وتعلو أصوات فرقة صفوت ويلفـت الزحام ـ حول عربة اليد ـ الأنظار، ويجذب الجمع النـاس أكثر كما يجتمع الذباب إلى الذباب.

ينتشر رجال صفوت موفوري العـدد فـي المنطقـة، يشمون رائحة النقود ولو وضعت في علبة من رصـاص لا يخترقها الإشعاع النووي.

يقتربون من أحد المتفرجين / الهدف، يتركونه لواحـد منهم ليكلمه.

- ما تيجي نجرب حظنا يا حاج.

- ماليش انا في الحاجات دي.

- طيب أجرب أنا أُدامك لو كسبت، إلعب، لو خسـرت يبقى حظنا وحش النهاردة، عايزين نطلع م الفقر يا حاج، الله يخرب بيت الفقر... تعالى يا راجل!..

ويختار الرجل من الفئات المختلفة علبا يعرفونها هـم، يكسب مرات ويخسر مرة عن عمد، حتى يسيل لعاب الهدف ويدخل المصيدة، يكسبونه مرة، يتدخل الصياد الـذي يقـول للضحية:

- أنا حظي حلو النهاردة يا حاج اسمع كلامي واختـار دي.

يوافق الرجل، يفتحها صفوت، يكسب صاحبنا.

الهدف معه الكثير من النقود، ثمن جاموسة.... ربمـا، ثمن القطن... ربما، صدق حدس الصياد!!

وقُبيل نهاية كل ما مع الرجل بقليل جدا... يأتي أحدهم، ضخما في حجم صفوت، لطمة قوية منه على قفا الضحية في الوقت الذي يتصنع فيه صفوت وكل أتباعه من حوله الخوف وسرعة الهرب.

صفعة أخرى من الرجل الضخم من إمسـاك بتلابيـب الضحية.

- بتلعب قمار يا راجل يا حمار، قدامي ع القسم.

ويؤخذ الضحية، تنهبه المفاجأة، تصبح أغلى أمانيـه أن يتركه هذا السليط، قاسي القسمات، جامد الوجه.

يتوسل الرجل الضحية بكل ما تسعفه ذاكرته من كلمات التوسل أن يدعه... يتدخل بعض رجال صفوت... خسر كل فلوسه، حظه كان وحش النهاردة، كفاية عليه كـده، عشـان خاطري يا عم المخبرين، ويتظاهر بنقده ورقةً نقدية.

يتنفس الرجل الصعداء، يتكتم حكايته، يذهب إلى قريته يتمسك أكثر بحدودها.

كم أنتِ حانية أيتها القرية، قاسية أيتها المدينة!!.

* * * *

الطالب الأزهري الأعرج يقصـد العـودة، مجموعـة صفوت في أوج نشاطها. دفعه الفضول أن يـرى الضـحية وكيف يتعامل الزبانية معه.

كانت مفاجأة! الضحية أحد أقارب الطالب الأزهري وقد اقترب السيناريو المعتاد في نهايته.

يتقدم الأزهري من عربة النصـب، يمسـك بتلابيـب صفوت!!!.

هذه فعلة شنيعة يستحق فاعلها أن تسـيل الـدماء مـن أماكن عديدة من جسمه، فعلة لا يقدم عليها أبدا من يعـرف

شلة صفوت، يعرف عددهم، وطريقة هـروبهم، وصـلاتهم برجال يستطيعون تخليصهم.

لكن فعلها الشيخ.

توقع الناس أن تطيح العمامة وتسيل دماء تحت الجبـة والقُفطان.

وهم رجال صفوت بالانقضاض.

أشار إليهم القائد بالتوقف والتفرقة إشارة سريعة، مركزة نفذت في لحظات.

- إحنا ما نقدرش نزعلك يا عم الشيخ، انت خسرت كام يا ريس...؟

- خمسة جنيه.

- بس...!!؟ ولا تزعل آدي الخمسة بتوعـك وعلـيهم بوسة عشان خاطر الراجل المبروك ده. ادعِي لنا يـا عـم الشيخ.

وسحب الشيخ قريبه وعنفه.

- ينصر دينك يا شيخ، والله ما هتريـق عليـك بعـد النهارده، د انت فتوة بصحيح. قالها له أحد النمور الورقيـة

الذي كان يرعبه مجرد النظر في وجه صفوت.

استاء بعض أفراد شلة صفوت وراحوا يعاتبونه:

- عملت ليه كده..؟، كنا أَقْلَطْنَا الاتنين وخلاص.

- عيبكم ما بتفتكروش التاريخ، فاكرين من خمس سنين الأزهرية عملوا فينا إيه، لمـا لعـب معانـا واحـد مـنهم وضربتوه، المعهد الأزهري عشرين خطوة مننا، راح جـاب الأزهرية كلهم، المعهد كله. فاكرين حصل لكم إيه؟.

- أسبوعين ما اشتغلناش خوف منهم لما كنا هنشحت.

زعلانين ليه..؟ هوة سوق المغفلين ها يلخص، ها يقفل يعني؟

بنشتغل بقالنا عشر سنين وزباينا الحلوين بيزيـدوا مـا ينقصوش.

- بلاش الراجل ده.

لم ينته صفوت من كلامه إلا وقدمت ضـحية سـمينة استلبوها، واختفت العربة والناس في لحظات.

تكفيهم مثل هذه الضحية، لينصرفوا إلى لهوهم، إلى يوم آخر تشرق فيه الشمس على ضحية أخرى.

* * * *

يستقل صبري القطار ليمارس عمله بإخلاصه المشهود له مع زميل له المفروض أن القطار مقسم مناصفة بينهما!.

مديرو الشركة يعرفون من هو صبري، يعرفـون أنـه يعتبر نفسه الكمساري الوحيد حتى ولو كان يرافقه عشـرة، فكانوا يرافقونه بأحد الكسالى. أحد الذين أرخوا أيديهم إلـى جانبهم وتركوا لعواصف الحياة الحرية في العبث بـأوجههم كيف تشاء، فلا أمل في ترقية، ولا خوف من فصل، فعـلام إذن الجد والاجتهاد؟ لِم المعاناة؟... تكفيهم معانـاة الحاجـة ومدافعتها.

ينشط صبري كعادته، يحصد التذاكر حصدا، ويحـرر قسائم التحصيل بهمة بالغة وقتال مستمر، وكأن كل الركـاب آثروا أن يدفعوا داخل القطار.

لجنة تفتيشية !!...

تعبير جديد غير مألوف، إجراء لم تفعله الشركة قـبلاً،

غريب على الأسماع.

توقف القطار في المحطة لحظات إضـافية، المحطـة كانت في منتصف المسافة بين بداية خط القطار ونهايتـه.. هذا أمر طبيعي.

نادى أعضاء اللجنة في صبري ورفيقه أخذوا بياناتهما:

نحن لجنة تفتيش مركزية، على مستوى الجمهورية.

- أهلاً وسهلاً.

انزوى رفيق صبري جانبا، كأن الأمر لا يهمه، يمشـي بتكاسل غريب خاف اللجنة التي بدأت تعيـد فـرز تـذاكر الركوب. صبري يرافق اللجنة بكل همة وهو مطمئن.

سيدة مسنة كانت تجلس على أرض العربة كأنها هاربة من الحياة كلها، لا تشكو إذا لامسها أحد بقدميه أثناء تخطيـه لها، حتى لو داسها بكلتا قدميه، بينها وبين الشكوى شأو بعيد.

- تذكرتك يا حاجة؟

- مين، آه.

- تذكرتك؟

- أنا دفعت يا خويا.

- دفعتي لمين يا حاجة..؟.

- دفعت للراجل اللي كان بيفتش.

- طيب فين التذكرة..؟

- تذكرة إيه يا ابني، أنا مالي ومال التذكرة، أنا دفعـت وخلاص.

- اديتي الفلوس لمين؟، للراجل ده؟

كان صبري هو القريب من اللجنة.

- باين يا ابني هو ده اللي خد مني.

- أنا يا وليه يا بنت ستين... اللي أخدت منك؟

- أنا مالي يا خويا، أنتم حرين مع بعض، حا تحشروني في وسطكم ليه.

وجدت اللجنة مأربها. كأن اللجنة ما جاءت لتتأكد مـن حسن سير العمل أو عكسه!... جـاءت لتحريـر محضـر بقضية، ليثبت بالتالي أعضاؤها أنهم عملوا، فرزوا، جـدوا، ووجدوا.

أخيرا وجدوا مادة للقضية!.

نزلوا بصبري والسيدة إلـى أقـرب نقطـة للشـرطة

ليحرروا المحضر اللازم، وكلهم فرح فقد تحقـق مـرادهم، تحرير قضية!... فقط.

القرية التي تقع فيها نقطة الشرطة مـن القُـرى التـي يخدمها القطار، يعرف أهلها صبري.

هز خبر القبض على صبري الكثيرين من أهل القريـة الذين يعرفون صبري ومدى إخلاصه وأمانته.

هرعوا إليه في نقطة البوليس، كـان رئيسـها برتبـة صول، فلا تحتاج إلى ضابط. الأمن هناك مسـتتب. ويقـوم عليه القوم بحل معظم المشاكل قبل أن يصـلوا إلـى نقطـة الشرطة فإذا وصل منها شيء ذهبوا إلـى الصـول وأنهـوا معظمها.

أجمع كل الحاضرين على نزاهة صبري.

- ده شُغلنا يا جماعة، ما تتدخلوش فيه. قـال أعضـاء اللجنة.

- شُغل إيه..؟ هوة فيه في الشـركة كلهـا واحـد زي صبري؟ - اسألونا إحنا... إحنا اللي بنركب معاه كل يوم. – قالها الحاضرون.

- ابقوا روحوا معاه قُدام النيابة وقولوا كدة.

- ماشي إحنا ها نتصـرف. رد الحاضـرون وقـالوا للسيدة:

- انتي يا ولية ما تقوليش أي حاجة لا يـودوكي فـي داهية، إحنا رايحين عزبتكم نجيـب لـك الأسـتاذ علـوان، تعرفيه؟.

- والنبي تجيبوه... ما حدش بيتصرف في العزبة كلها إلا بشورتة هوة، جِده وأبوه أصحاب العزبـة، واحنـا كلنـا بنشتغل عندهم.

ها يودوني في داهية... يا نهار اسود! وانخرطت فـي النحيب كأنها ترى نهايتها.

ذهب المتحمسون إلى عزبة علوان (التي يقطنها علوان) أقصى ما يستطيعون من سرعة بعد أن أوصوا رئيس النقطة بعدم تحرير محضر إلا في حضور علوان.

طمأنوا صبري...

قابلوا علوان، يعرفهم ويعرفونه. قابلهم بترحيب هائـل تفاءلوا له، شعروا أن القضية يمكن أن تنتهي، أكيد ستنتهي.

طلبوا منه أن تقول السيدة: أنها لم تدفع لأحد وأنها قالت ذلك للجنة خوفًا منهم وادعاء لا أساس له من الصحة، كل ما

على السيدة في هذه الحالة هو دفع تذكرة الركوب وغرامة لا تتعدى قيمة التذكرة الأصلية، سيقومون هم بدفع كل شيء، أو أن الأفضل أن تقول في المحضر أنها ما قالت لهم شـيئًا ولا رأت صبري من أساسه.

أبدى علوان استعداده للحضور معهم لكن بعـد تقـديم واجب الضيافة.

اعتذروا بإصرار لضيق الوقت وأخذوا علوان إلى نقطة الشرطة.

تململ أعضاء اللجنة كثيرا وطـالبوا رئـيس النقطـة بتحرير المحضر فوقتهم ليس ملكهم... إلخ.

كان الرجل كيسا، فتح معهم الحوار يليه الحوار، شاي، وقهوة.

لم يمض أكثر من نصف ساعة حتى وصـل الجميـع بعلوان.

دخل علوان نقطة الشرطة بنشـاط، هـو الآن رجـل الساعة، أهم رجل في الحاضرين. طلب الانفـراد بالسـيدة. أتاح له الجميع الانفراد بها.

ردت الروح إلى السيدة التي كانت فزعة، يكـاد يـأتي

الرعب عليها، خمس دقائق مكث علوان معها، ثم بـدأ فـي تحرير المحضر.

الجميع في الخارج في حالة من الاطمئنـان والتفـاؤل، إنهم يحبون صبري وقد أدوا نحوه واجب تفرضه النخوة.

وأصرت السيدة على أقوالها !!..

وانخرط صبري في بكاء مرير، يقطع نياط القلوب.

الوحش الكاسر يبكي بوحشية!!. تنزل دموعه كـالمطر الغزير بلا توقف.

إنه الوحيد دون سائر زملائه الذي حـررت لـه هـذه القضية...

وهو الوحيد الذي كان يعمل بإخلاص لا يبارى!.

أهذا جزاء الإخلاص؟... ماذا سيقول الناس عنـه فـي القرية؟

ماذا سيقول الزملاء؟

إحساس مجنون بحبيبة يظنها أخلص نساء العالم، وجدها فجأة في أحضان رجل آخر!!.. شعور بظلم ما بعده ظلم.... إحباط ما بعده إحباط.. تحولت الدنيا كلها أمامه إلى ظـلام،

الناس إلى أشباح، حياته إلى سراب، ضرب الرجل في حبـه الوحيد!.

* * * *

ما هذا الذي فعلت يا علوان؟... أهذا الذي اتفقنا عليه؟

أضحكت علينا جميعا؟! – أتستهزئ بنا؟! سخرت منا؟! لماذا كل هذا؟

- أنا مالي – الولية أصرت على أقوالها.

- قول الكلام ده لحد تاني، إحنا عـارفين مـين انـت بالنسبة لأهل العزبة كلهم، انت لو قلت لها اشْنُقي نفسك هـا تشنُق نفسها.

- ليه كدة يا أخي؟ حرام عليك.

سارع علوان وكشف ظهـره، آثـار جـراح مخيفـة استعصى على الزمن إخفاؤها فظلت شاهدة، مذكرة بأسبابها.

كان المنظر مخيفًا، صعبا، مرعبا، ومقززا.

- اسألوا الجروح!... قال علوان.

- غطي ضهرك يا راجل – بس إيـه دخـل صـبري بالجروح جدي؟- صحيح صبري ياما عمل مشاكل، يعنـي

اتدخل في مشاغبات، بس احنا نعرف إن عمره مـا مسـك مطوة ولا سِكينة ولا حاجة م الحاجات دي. ما هوش صبري اللي عمل كدة، لكن كفاية قوي إنه من بلد حمودة، عـارفين حمودة طبعا؟!... عارفين خُطـاف حمـودة دي ضـربات خُطاف، خطاف يغرز في اللحم ويتشد يقطع في اللحم.

- مش ضربة واحدة، آدي انتم شايفين... صـبري ده صاحب حمودة!.

- لو واحد فيكم أخذ ضربة من دول كـان عـرف أن عندي ألف عذر وعذر. معلهش يا رجالة أخـدمكم فـي أي حاجة تانية غصب عني واللهِ.

أنا فعلاً كنت جاي معاكم ناوي أخلص المشـكلة، لكـن لقيتني غصب عني، صدقوني غصب عني عملت كدة.

لم يجد أحد كلمة واحدة يقولها.

تركوا علوان وشأنه، وأخذوا في محاولة تهدئة صبري.

أية تهدئة!!.. قد تفقد كل كلمات العالم بكل لغاته معناها في لحظة من اللحظات.. في مثل هذه المواقف!.

حول صبري إلى النيابة الإدارية، حيث قررت خصـما من مرتبه، وتغيير وظيفته من مفتش تذاكر إلى ناظر محطة.

خصم إداري! بقعة سوداء في الثوب الأبيض!.

ناظر محطة... سيجلس صبري علـى شـاطئ بحـر القطار، ينظر إلى مياه يتبخر شوقًا للسباحة فيها والغوص في أعماقها!.

* * * *

لكل غابة ثعالبها، ولكل ظرف مستغليه. الخفـافيش لا تسعى إلا في الظلام، النور يشلها. للبيئة العفنة كائناتها الحية التي لا حصر لها، لو خُفف عفنها لماتت أكثر أحيائها.

الزحام شديد، ظرف مناسب لنوع من الثعالـب، بيئـة مهيأة لنشاطه لا يستطيع العمل في غيرها.

رجل طويل عريض، قاسي الملامح، يضرب بمنتهـى العنف والقسوة، طفلة تستحلفه أن يتركها، يفهم من رجائهـا أنه والدها.

تحاول الطفلة التخلص منه خلال الزحام، تلقي الطفلـة بنفسها ببراعة يحسدها القرود عليها على صدر رجل.

تلتصق البنت على صدر الرجـل كحشـرة مصاصـة للدماء، مستنجدة به بكل رجاء أن ينقذها:

- حوشني يا عم – الله يخليك يا عم – وتمضـي فـي احتضان الرجل.

يحتد الرجل!...

- انتَ مافيش في قلبك رحمة يا راجل انت!.. قلبـك حجر!... هيه مش بنتك؟.

- ماحدش له دعوة. بنتي وباربيهـا. أدبحهـا كمـان. ماحدش له كلمة عندي. اللي عنده كلمة يوفرها على نفسه!.

ويستمر الرجل في الضرب بوحشية وغلاظة.

- خلاص يابا مت – خلاص.

أخيرا.. يستجيب الوحش الآدمي لتوسلات الركاب الذين كاد بعضهم أن يلتحم بالرجل ليرد له الصاع صاعين أو ثلاثة حسب الأحوال.

وكان القطار يستعد للتوقف، نزل الوحش وابنته، وشـد القطار بعضه على مهل وغادر المحطة. ويبدأ القطـار فـي التسارع شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى سرعته القصوى.

يتحسس العم طيب القلب صدره، وبسرعة شديدة ولهفة هنا وهناك في جوانب الصدر الطيـب الحنـون – يصـرخ

كالمجنون:

- محفظتي، محفظتي، اتسرقت يا عالم، يا خراب بيتك يا عبده... اكتشف العم أن الطفلة سرقته.

- انزل يا عم وارجع المحطة دي مشْي واسـأل علـى الراجل.

- ينزل مين يا عم... ربنا يعوض عليك، لا هوة مـن البلد اللي نزل فيها... ولا من أي بلـد علـى الخـط... ولا هيركب القطر تاني... ياللا تعيش وتاخد غيرها.

- اللي بيجي في الريش مفيش يا حاج.

- يا ناس ارحموه بقى... ربنا يعوض عليك!.

* * * *

لص منفرد كعازف الصولو الذي يعزف منفردا، يبـدو أنه غير متمرس، قد يكون هاويا لم يصل بعد إلـى مرتبـة الاحتراف. يده المرتعشة تمتد إلى جيب أحد فراعنة القطار، أكيد أنه لا يعرف أحدا، ربما يركب للمرة الأولى، تضبط يده المرتعشة في الجيب الخالي!.

- عليه النعمة انت حظك وحش. انت هتصعب عليـه

قوي.

- على فكرة ُأمك داعيةْ عليك، أكيد داعية عليك، قـال النمر الورقي.

- سلمه للبوليس يتصرف معاه.

يقترح أحد الركاب التسليم للبوليس.

- ده تعمله انت، أما إحنا مش بتوع بوليس.

لم يتعاطف أحد مطلقًا مع اللص، على العكـس سـاهم الكل بنصيب وافر في الوليمة التأديبية للص الـتعس فكـان إخراجها في غاية الإحكام.

ربما غيٍر اللص مهنته وبحق إلى شحاذ، فقد أهلوه لذلك تماما!

* * * *

مظهر الأستاذ رائع. يبدو يوميـا كأنـه ذاهـب للقـاء تلفزيوني. صلعة بيضاء لامعة تماما كالمرآة. له شعر يمتـد حول الأذنين ويختفي عند سطح الرأس، سطح الرأس خـالٍ من شعرة واحدة.

نظارة سوداء ينسجم لونها مع لون جبينه الأبيض، مـع

الرأس الأصلع اللامع. يرتدي قميصا أبيض وكرافتة رمادية بها نقش أحمر، وحلة سوداء ثمينة.

الرجل لا يحب الجلوس في القطار خاصة في الزحـام الشديد، رغم أنه من قطاع ما بعد الصين حيث يكون القطار غير ممتلئ ويمكن الحصول على كرسي خالٍ بسهولة.

لكنه لا يجلس، لا تجده إلا واقفًا حيث تقف السيدات، أي سيدات!.

أساليبه متنوعة للوصول إلى غايته الدنيئة، وله خبـرة متمرسة في هذا الشأن، فإذا نفرت واحدة زحف إلى أخـرى حتى يجد ضالته، وغالبا ما يجدها. قد تستسلم الفريسة حياء، أو يأسا من الهرب، أو لا مبالاة...

فطن طلبة القرية الأم لأفعاله، استهجنوها، لا سِنه، ولا مظهره، ليست صورته صورة مراهق، ولا مظهره يبرر له هذا التدني الذي يجب أن يترفع عنه.

حذره بعضهم على استحياء. الأستاذ يدعي عدم القصد، وأنه ليس بالذي يفعل هذه الأشياء، لكنه يعود، وتزداد لهجـة التحذيرات شيئًا فشيئًا، الرجل يعرف العلامات الحمراء، قبلها بقليل ينتهي حتى لا يحدث له ما يعرفه فإذا تداولتـه أيـادي

هؤلاء، كانت الكارثة.

اعتاد الأستاذ، أصبح أسيرا لهذه الرداءة ومدفوعا لهـذا التدني.

ذات صباح شوهد الرجل يجلس بجوار سيدة حسناء.

- ماشية معاه واقف وقاعد... قال أحد الطلبة.

- دي مراتهُ، أنا عرفها كويس. رد أحد عارفيه.

- مراته، تبقى احلوت، جالك الموت يا تارك الصلاة!.

- تقصد إيه يعني؟!

- لا لا ما تشغلش بالك انتَ، شـكرا علـى المعلومـة الجميلة دي. كان معظم الطلبة في حالة من السخط على عادة الأستاذ السيئة، تناقشوا فيما بينهم للوصول لطريقة الـردع، فكيف يسمحون له بهذا على مرأى ومسمع مـنهم؟ اقتـرح أحدهم أن يضرب الرجل بلا رحمة في أي وقت حتى ولو لم يكن متلبسا، لا يشترط التلبس، فالجميع يعرف اعتياده.

كانوا على وشك التنفيذ وتحديد الموعد حين جاءهم هذا بتلك المعلومة الطازجة.

لابد أنه سيعود في قطار الثالثة المكون مـن عـربتين

والشديد الزحام دائما في أي يوم من أيام الأسبوع.

وتم رسم الخطة: يجب حجز كل المقاعد والتنبيه الشديد على كل الحاجزين بعدم التطوع بمكـان لجلـوس زوجـة الأستاذ.

صدقت توقعاتهم، وصل الأستاذ وزوجته كأنهمـا كانـا على موعد مع المتآمرين، جاء القطار محجوزا كما اتفـق، ركبا في منتصف العربة كما هو متوقع بالضبط، يشتد الزحام رويدا رويدا حتى اقترب الركاب من الالتصاق، هـذا أمـر طبيعي حسبوا له حسابه.

دق جرس المحطة إيذانًا برحيل القطار، مع الجرس قفز أكثر من عشرة من الطلاب المتآمرين من النوافذ المحيطـة بالفريستين، تحرك القطار، نزلوا من النوافذ إلى وسط العربة محيطين بالرجل وزوجته من كل جانب، ملتصقين بالرجـل نفسه وزوجته من كل جانب في أول مـؤامرة مـن نوعهـا وربما كانت الأخيرة.

لم يفلت الأستاذ ولا زوجته من الهجوم المدبر المحـيط بهما من جميع الجهات، هجوم دائري محكم.

صلعة الأستاذ تنضح عرقًا غزيرا ينزلق عنها في كـل

اتجاه.

قال أحد الهاجمين وعيناه مصوبتان كالسهم إلى عينـي الرجل:

- الشر بالشر والبادي أظلم.

لم ينطق الرجل حرفًا، وإنما أحني الرأس موحيـا بـأن الرسالة قد وصلت، وأي وصول!!.

احترم الرجل نفسه ومظهره وسِنّه بعد ذلك، لم ير بعدها في وضع رديء. ثبت أن البشر يمكن أن يقلعوا عن عاداتهم الرديئة، حتى ولو كانت الاحتكاك بالنساء فـي يـوم شـديد الزحام!.

* * * *

الثلاثاء، قطار الثالثة، قطار العودة تحول كالعادة إلـى كتلة ضخمة هائلة من اللحـم البشـري، ضـاعت ملامـح الملتصقين. ألف البعض الزحام، وكاد الـبعض أن يختنـق ويموت. لا يخلو الأمر - رغم الزحـام الشـديد - ممـن يساعدون من يحتاج المساعدة بقدر ما تتيحه لهم الظروف.

سيدة تدخل القطار بمساعدتهم، يميل عنقها على كتفهـا،

تصدر آهات منتظمة، متواصلة، كأن الموت يقف على بابها. أجلسوها بجانب النافذة بعد تطوع صاحب المكان لهـا عـن طيب خاطر راضيا ومبتسما. يمكنها هذا المكان من استنشاق الهواء القادم من الخارج بعيدا عن الأنفاس المتزاحمة؛ لعـل ذلك الهواء يؤجل موتها قليلاً حتى تصل إلى قريتها!

الزحام شديد...

- من سائق القطار اليوم؟

الركاب يعرفون السائقين، وصفات وطريقة قيادة كـل منهم، ليست للسـائقين كبـائن خاصـة، بالضـبط كسـائق الأوتوبيس يمكن الركوب بجانبه والتحدث معه.

- عطوة الإكس... عطوة الإكس... تردد الاسم علـى أكثر من لسان.

كان اسمه عطوة واكتسب الإكس اكتسابا لأنه لا يقـود إلا بأقصى سرعة ممكنة، سواء كان القطار مزدحما أو غير ذلك، مطر مؤثر، أو جو جاف، هو يعرف شيئًا واحـدا: أن يسوق بسرعة.

انطلق القطار، عطوة يمارس هوايته في السرعة، تتزايد رقصات العربات الخلفية على القضبان، تتزايد سرعة رقص

العربات.

- ينصر دينك يا عطوة، أهو كدة السواقين يا بلاش.

- يخرب بيتك يا عطوة هاتودينا في داهية.

- الراجل ده مجنون، المفروض يودوه الخانكة.

- يا عم صلي على النبي، قول يا باسط، عايزين نروح بسرعة، إحنا هاننام!.

يتداول الركاب الحوار حول عطوة ما بين مؤيد لطريقته ومعارض.

تتزايد درجة حرارة القطار نظرا للسرعة مع الحِمل الزائد الذي لم يضعه في حساباتهم من صمموا القطار.

المعتاد في مثل هذه الحالات أن تنزل على الركاب مياه ساخنة يطفحها عليهم القطار، تنزل على رؤوسهم مطرا ساخنًا، مياه تطردها حرارة موتور القطار من السطح.

مطر دنيا القطار ساخن!. لابد أن يحتمله أهل هذه الدنيا.

أحد الأشقياء من الطلبة يطلب من مرافقيه عمل حلقة حوله، حيث تكون ظهورهم له، وهو في منتصف الحلقة فوق

سطح القطار، ويبول مع المياه النازلة من سطح القطار على الركاب... مياه ساخنة، تنزل من السطح!!.

يستمر عطوة في سباقه، سطح القطار أيضا ليس فيـه مكان لقدم، لعل السطح أفضل مكان لركوب القطـار، كـان يجب على الشركة أن تفرض أجرة ركـوب مميـزة لمـن يركبون السطح!.

على السطح من يركب أول مرة يمسك بالخشب المعـد للجلوس بكلتا يديه كأنه سيختطف، أما المحترفون فيتجولون وكأنهم على الأرض.

أحد الفلاحين على رأسه طاقية طويلة مغزولة ومنسوجة يدويا بروعة وإتقان، يجلس على سطح القطار وقلبه يتحرك مع كل رقصة من رقصات العربات خوف الوقوع، خـوف الموت.

أشجار متعددة تتدلى أعصانُها من الجانبين في بعـض الأماكن على سطح القطار، منها أشجار السنط بإبرها الحارة النافذة.

يتمايل قطار عطوة الإكس بشدة يمينًـا ويسـارا. أحـد أغصان شجرة السنط يقتنص طاقية الفلاح بخفة وبراعة كأنه

تدرب على هذا العمل ولا يقصد إلا هذا الهدف بالذات. يسير القطار وتظل الطاقية معلقة ما بين الغصن والأرض، متمايلة لا تقع، تخرج لسانها لصاحبها!.

ضحكات، وصفارات، وتعليقات قهقهات، والرجل صاحب الطاقية يكاد يلقي بنفسه خلفها، بتلقائية وبسرعة شديدة يضع الرجل يديه على رأسه كأنها عورة يجب سترها عن الأعين المتلصصة بأقصى سرعة!.

كيف ينزل القرية ورأسه مكشوفة؟.

هدأ العارفون روعه، طيبوا خاطره، أعطاه أحدهم شاله يستر به رأسه حتى يعود.

- الله يسترك، دعا له صاحب الطاقية المختطفة.

يزداد جنون عطوة وتزداد سرعة القطار، كأنه في سباق يريد حصد الجائزة الأولى، يتفاعل معه القطار كما يتفاعل الفرس مع الفارس.

منحنيات يتجاوزها عطوة، تتزايد فيها صرخات القضبان نتيجة احتكاك العجلات الرهيب معها، وعطوة لا يبالي. منحنى رهيب يداهمه عطوة كأنه ينقض على فريسة، المنحنى هذا يعمل له السائقون ألف حساب إلا عطوة.

صرخات وصرخات واستغاثات وغبـار يتصـاعد، سـقط القطار عن القضبان. وبقدرة قادر لا يرتمـي علـى الأرض ولكن تُغرس العجلات بعمق شديد في طـين الأرض فتقـف وتميل ولا تسقط، وإذا بالسيدة المتأوهة - التي كان يظن أن زائر المـوت يخـرج يـده مـن جيبـه ليلـتقط روحهـا - تقفز من النافذة برشاقة بهلوانية وخفة بطريقة يعجز عنها أكثر الركاب!.

* * * *

ينحصر الزحام بوجهه الكئيـب فـي قطـار الـذهاب الرئيسي وقطار العودة الرئيسي أيضا. في غيرهما تسـتطيع أن تستمتع بركوبه، فالقطار يشق طريقه وسط شرايين تحمل مياه النيل إلى الأرض الطيبة فيخرج نبتُها يانعا رائعا مبهجا للنفس والعين متْحِفًا الأنوف بالروائح الرائعة مع شـمس لا تعرف الغياب، إلا في أقل القليل، وسماء صافية طوال العام إلا بعض أيام، كأنها تشير من خلال هذه الأيام إلى صـفوها لينتبه الناس إليه.

رحلة رائعة في بحـار الخضـرة والجمـال وزقزقـة عصافير وادعة، يسمع لحنها الأبدي الذي لا يمل، صـورة

وعبير وصوت وسرعة قطار عليلة تناسب الاستمتاع بعمـق وروية.

رحلة تثري الوجدان وتغذي المشاعر وتقفز بـك فـوق أثقال الحياة، تتذوق النفس خلالها مجالاً حقيقيا أخاذًا.

القطار يسير ببطء لتزيد المتعة ويزيد الاستغراق فيها.

ويتسلل إلى الآذان صوت شـجي مـتمكن مصـحوب بعزف رائع على الربابة، يشدو الرجل ضعيف البصر بتمكن وإحساس وانفعال، يشجيك الصوت على الفور إذا أعطيت له أذنيك، تصحب صاحب الصوت والعـزف ابنـة لا تتعـدى الثمانية أعوام، تقوم بجمع ما يجود به الناس عن طيب خاطر وبلا سؤال، فالغناء سؤال ضمني عذب، يجنبها ووالـدها ذل السؤال.

- ما تسيبك يا عم م الموضوع ده وتيجي تحيـي ليلـة المولد الكبير في البلد عندنا، انت أحسن ألف مرة من الراجل الشحط المحط اللي بيجي يقرفنا بصوته وبكلامه.

- كدة فل وعال العال ورزقنا بيجينا وحامدين ربنا.

- يا عم.. أنا عايز اكتشفك،، أنا راجل باقدر المواهـب كويس.

- صلي ع النبي يا سيدي، ما تتسلاش علينا، خلينا في حالنا، ياللا يا بنتي.

يهرب الرجل كأن أحدا يطارده، وتغير مزاجه، لم يعـد قادرا على الغناء الآن. نزل عندما توقف القطـار فـي أول محطة ليركب الاتجاه المعاكس ويكمل سعيه وشدوه، فالرجل لا يحب التغيير، استقرت حياتي هكذا، تكـرار يومـه هـو استقراره، إحساسه بالأمان، كل شبابيكه قفلها بإحكام لا يريد رياحا لتغيير.

ليدعه البشر كما هو، هكذا هـو مسـتريح، مـا بـال الناس؟!!

* * * *

إنسان الكهوف بعث من جديد، يرتدي عـدة جلاليـب بعضها فوق بعض، كأنما وجدها كلها في مكان بعثه، فـآثر ألا يترك منها واحدة، غطى الشعر الكثيف جدا وجهه كمـا غطى رأسه، أظافره لا تعرف التقليم، يحمـل عـدة جرائـد يومية تحت إبطه، كأن هوايتـه جمعهـا، مختلفـة تـواريخ الإصدار. يمسك بأحد الجرائد ويقرأ بصوت مسموع، فعـلاً

يستطيع القراءة. هوايته ركوب القطار طوال اليـوم، ذهابـا إيابا.

يعرفه كل الناس، وكل مفتشي القطار، فلا يسأله أحـد عن تذكرة ركوب. لا يسأل أحدا إحسانًا ولكن يقبل الصـدقة إذا أعطاها له أحد. اشتهر بالأمانة وبمعرفة شوارع المدينـة شارعا شارعا ويعرف بذاكرة حديدية أماكن كل الطلبة الذين تخلصوا من عناء السفر اليومي وسكنوا في المدينة بجـوار مدارسهم وجامعاتهم.

بعض أهل هؤلاء يرسلون معه ما يريـدون توصـيله لأولادهم حيث يسكنون، ويرضى هو بأقل القليل نظير تلـك الخدمة، ما خان الأمانة يوما، وما حـاول أن يعـرف مـاذا يحمل في لفافة أعطيت له لتوصيلها أو سـلال ثقيـل ينـوء بحمله.

سيدة كانت تفضل أن يأكل أبناؤها الكثيرون يوميا مـن طهيها ليوفروا وقتهم للاستذكار، فتُحمل صاحبنا بما طهـت وخبزت، أحمالها دائما أثقل ما يحمل. لا تَنْقُده السيدة شـيئًا، لكنها تعده كل مرة أن تجزل له العطاء في المرة القادمة، لا تعطه السيدة شيئًا يأكله، ولا مليما واحدا ولم يعطه أبناؤهـا

شيئًا، لا يسمع إلا وعدا في المرة القادمة سيأخذ مـا يريـد، ظنت السيدة البخيلة عليه أنه ينسى، ثم ماذا يفعل هو بالنقود؟ إنه يأكل كما تأكل الحشرات، كما تأكل قطط الشوارع وهـذا يكفيه.

رغم إحساسه أحيانًا بالجوع، ورغـم طغيـان روائـح الطعام التي تقتحم أنفه ويسيل لها لعابه، كان يحفظ الأمانـة ولا يدفعه الفضول إلى معرفة ما يحمل للأكلة!.

زاد ضجر صاحبنا من السيدة الـدءوب، ولأول مـرة يطالب بحقه.

- حقك محفوظ عندي هيروح فين؟... كل حقك هاتاخده مرة واحدة.

- يا ستي اللي فات مات مش عايز حاجة منه، هـاتي بس حق توصيلة النهاردة.

- مفيش فكة معايا النهاردة، وصل الأكل ده بس وبكره ماليش بركة إلا انتَ.

- أنا أقدر أفك لك اللي انتي عايزة تفكيه.

- بس روح دي الوقت، بكرة، بكرة يا أخي تاخد كـل اللي انت تطلبه.

مل من خدمتها، وعزم على ألا يحمل لها شيئًا بعد اليوم حتى لو أعطته فيما بعد ضعف ما يعطيه أجود الناس.

أدرك بفطرته أنه لن يحصل على شيء، السيدة اكتفـت بما يصل إلى أنفه من روائح الطعام، ألا يكفيه هذا؟!.

حمل السلال إلى سطح القطار ونزع الغطـاء... ولأول مرة في حياته يقدم على مثل هذا.

زوجين من الحمام المحشي بالفريك وكيلو مـن اللحـم المحمر بالسمن البلدي، وأرز مطهي بـاللبن الحليـب دون الماء.

أتى الرجل على كل شيء وألقى بالسلال إلى فرع النيل ليحكي للنيل حكايته. وانتهت علاقته بالسيدة إلى الأبد...

* * * *

ويرى بالقرب من المنصورة إنسان مماثل ولكنـه بـلا ملابس يختفي في نبات الحلفا إذا رأى القطار من بعيد. نبات الحلفا كان يحيد بالقضبان في مناطق عديدة، وكـان طولـه يصل أحيانًا إلى أكثر من المتر.

كان الرجل لا ينجح في الاختفاء عن العيون فـي كـل

مرة، كان يرى كاملاً في بعض الأحيان، يشغل نفسه دائمـا بشيء ما لا فرق بينه وبين حيوانات الغابة.

كان بعض الركاب يقذفون له ببعض أرغفة الخبـز، أو برتقالة وبعضهم كان يقذفه بقوالح الذرة أو بأي شيء صاب تصادف وجوده في يد أحدهم... وللناس مذاهب شتى!!.

تعددت الحكايات حوله، لا تعرف حقيقة تلك الحكايات، أهي من نسج الخيال السقيم كسقيم الحياة التي أنبته؟... ربما. أهي حقيقية؟.... ربما....

هذا يقول: إن امرأته أصابته بالجنون، ووهبته كراهيـة كل بني البشر أيا كان شكلهم وجنسهم، ففر مـنهم جميعـا، ووجد مع الحيوانات حياة يستريح إليها.

ويقول آخر: إن رجل الحلفا اتُهم في قضية من القضايا فذهب إلى البوليس، أخذوه وهناك عالجوه بأدواتهم الرهيبـة، أفقدوه ذاكرة الحياة، علقوه من كل أعضائه، ثبتوا الخوف في كل خلاياه، من كل من يمشي على قدمين ولو كان ديكًـا أو حتى دجاجة. كان يخشى من كل كائن يمشي على اثنـين أن يكون بوليسا، فهرب إلى حيث هو:

تعددت الروايات والنتيجة واحدة، إن الرجل يعيش فـي

العراء وقد اتخذ من الحلفا مخبأً.

* * * *

تشق قضبان القطار بعض القُرى، ويمس حدود بعضها الآخر.

قرية من قطاع ما قبل الصين، تمر قضبان القطار بـين شارعها الرئيسي وبين فرع النيل. اعتاد أهل هـذه القريـة قضاء حاجتهم على شاطئ الفرع بعد الشارع الرئيسي بقليل حيث الهواء الطلق وتحت ظلال الأشجار. الناس متراصون يتكلمون في منظر مقزز، أسوأ منظر يمكن أن يراه الراكب على طول خط القطار.

كانت عادة تخص هذه القرية وحدها دون سائر القُرى، لماذا؟... لا أحد يدري... ربما كان هـذا تيمنًـا بالإنسـان الأول!، أو تظاهرة ضد الحضارة واعتراض عليها بطريقـة خاصة جدا!

ربما كان هذا عرض حال لينظر المسئولون إليهم!

أكيد أنه كانت لأحاديثهم نكهة خاصة!، كانت مؤخراتهم موازية للقطار، ووجوههم إلى سطح مياه النيل التي تسـرع

أمامهم حتى لا ينالها ما يفرزون!

كانت مؤخراتهم هدفًا يوميا بمقذوفات كانت موجودة بلا مصادفة، أو أتى بها صاحبها عن عمد ليتحـف بهـا تلـك المؤخرات العارية المتحدية!

وإذا وصل المقذوف إلى الهدف وتلاه رد فعل المتلقـي كانت ترتسم الضحكات وتعلو القهقهات.

طالب أزهري موهوب تماما في الضرب بالنبال، كـان لا يخطئ هدفًا ثابتًا كان أم متحركًا. يضع قطعة من الـزلط في نبلته، يشدها، يطلقها نحو مـؤخرة اسـتهدفها فيصـرخ الرجل وكأن رصاصة أصابته ويبتهج الركاب.

- عليك يا شيخ محمد تبطل رجالـة البلـد دي العـادة الوسخة دي، شد حيلك كدة كل يوم اصطاد لك حتتين تلاتة!.

قالها أحد المعجبين به.

عادة استأثر بها الرجال من دون النساء!.

* * * *

كان للحب أن يحتل مساحته، ما كان ليتركهـا، ولعـالم القطار أن يكتمل. إنها قوى أودعها الله في مخلوقاتـه، لـم

توضع عبثًا، القضبان المختلفان يتجاذبان. الطلبة والطالبات، البائعين والبائعات، بعض هؤلاء وبعض هـؤلاء اجتـاحتهم حمى الحب.

كان حبا محاطًا بسياجات متينة من عادات وتقاليد وقيم نسجتها يد الزمن على مدار آلاف السنين، لم يكن من السهل تجاهلها، أو اختراقها أو حتى الاقتراب منها، لكن ميزان تلك القوى أرجح، وكان لابد أن تعبر عن نفسها، فتولت العيـون لغة الكلام وولِد فقه الإشارات!.

عبد الباسط كانت تفضحه عيونه، لـم يسـتطع تشـفير كلامها، فأصبحت واضحة للجميع، ربما استراح لذلك، أكثر ما يسعده أن يعرف الناس حبه، وأن يعترفوا به، إنـه ولـد وليس بنتًا، لن يضيره كثيرا أن يتناقل الناس قصة حبه، على العكس كان أسعد الناس حينما يتكلم معه أحـد عـن حبـه خصوصا أقرانه من الفلاحين، وكم سعد حين وصفه أحـدهم بالنمس، فأحب هذا الحيوان وهو لا يدري عنه شيئًا، ما أراد أن يفهمه أن النمس خاطف ماهر، يخطف ولا يمسك به أحد، إنه خاطف كالنمس ولكنه خاطف للقلوب.

كان حبه فتاة المنديل السمينة البيضاء.

كانت السمينة البيضاء هي الفتاة المثالية لقاطني القرية، كانوا يقدرون اللحم ويهيمون ببياض النهار، ففي سواد الليل يخيم السكون وتنتهي مظاهر الحياة!

عبد الباسط كان يحرس "هيام" هذه التي هام بهـا عنـد الذهاب، ويقاتل قتالاً باستماتة حتى يحجز لهـا مكانًـا عنـد العودة. كان يمكنه في بعض الأيام أن يلحق بقطار السـاعة الواحدة فيلف حول القطار باحثًا عنها، فإذا لم يجدها تخلـف إلى قطار الثالثة، وربما كان الجوع يتغذى بأحشـائه، لكـن على المحبين التضحية!.

هيام كانت تركب قطار العودة على مهل، بينما عينا عبد الباسط تترقب قدومها السعيد، كان يناديها نداء قويا بعينيـه، فتتجاهل عن عمد ذلك النداء. بدلال الأنثى الفطري. إنها قوة الفطرة التي استطاعت أن تفرض نفسها على هـذه الكتلـة البشرية الرهيبة! حينذاك لم يجد بدا من النداء عليها، تتمهـل قليلاً في الإجابة حتى يشيط، ثم تشـير بالإيجـاب بحركـة سلحفاة، لا يعنيها الزمن ولا تعبأ بالمشاعر، ولا بكل أحداث الزمان. وتجلس بلا أي كلمة أو إيماءة شكر، ولكن صـاحبنا كان يلتقط الأنفاس حين يئن الكرسي تحت ضغطها الرهيب.

عرف الناس جموحه وحفظوا تصرفاته الرعناء.

إذا نظر أحد بلا أي تعمد ناحية هيام - خصوصـا إذا كان ينتمي إلى قطاع ما بعد الصين - كانت الواقعة وتقـوم قيامة سي عبده، ولا تنتهي إلا بعد أن يكون قد نـال سـيء الحظ بكل أذى، وفي وقاحة.

مل الناس تصرفات عبد الباسط التي وصلت إلـى حـد المرض، كانت تتكرر تقريبا في كل يوم وأحيانًا أكثـر مـن مرة في اليوم الواحد، ولا أحد يـتكلم أو يبـدي اعتراضـا، وينزل السوء بأبرياء ولا مدافع ولا رادع.

رجل وديع، ناعم الوجه، أسود الشعر ناعمه، كالشعوب الصفراء، يقف في هدوء ودعة وفي عينيه صـفاء الـديوك، جاء به القطار صباحا من قطاع ما بعد القرية الأم، ركبـت في حيزِهِ نظرة الآنسة هيام، كان الرجل ناعم الوجه والشعر لامعهما معا في عالمه الخاص كأنه يتأمل، ظن سي عبده أنه ينظر إلى جمال هيام فيطبق على صورتها عينيه حتى تطول فترة تشوقه بها، فأطلق سبابه كالسنان الحادة، ودفع النـاس محاولاً الانقضاض على الرجل الغارق في عالمه الخـاص كأنه ثَمِل، ما لبث أن أفاق على النباح الكريه.

- إيه – بتشتمني ليه يا أخ؟.

- يا أخ....! يا حنين – انت ها تستعبط يا حيلة أُمك؟

- إيه بس اللي حصل ..؟ أسأت لك لا سمح الله؟!.

أنا ما باكُلش مِ الشوية دول، غور من هنا، ما تـركبش في العربية دي خالص.

- بس أعرف إيه السبب..!.

- ده ها يستعبط تاني..! ما تغور بقى خلي نهار أُمـك يفوت.

كان كل شيء أمام حمودة، السيناريو كاملاً، كما دارت كثير من السيناريوهات المماثلة، كان بطلها سي عبده، حمودة كان يبعد بحوالي ثلاثة أمتار اجتازها خُطافه في لحظة واحدة مخترقًا قميص سي عبده وكتفه، جاذبا إياه إلى حيث قاعـدة الانطلاق.

وجد عبد الباسط نفسه أمام حمودة الذي لم ينطق بكلمة واحدة، ولكن كانت عيناه مصوبتان بحدة انخفضت لهما عينا سي عبده، وتحول بقدرة قادر إلى إنسان آخر، تحول من نار إلى رماد في لحظة.

- إيه يا حمودة أنا جبت لك سيرة.

- انت مش تنزل مِ العربية، لأ.. انت تنزل من القطـر خالص، لو شفتك النهاردة في القطر، هيكون الخُطاف التاني في عينك.

واختفى سي عبده عن العيون.

اتضح أن صاحب الوجه والشعر الناعمين كان شاعرا، الأكيد أن اتجاه وحي قصيدته قد سلك طريقًا آخر.

* * * *

الناس في قرية المؤخرات العارية المصوبة إلى القطار، ذلك الذي يشق الشارع الرئيسي الموازي لفرع النيـل فـي قريتهم يتجمعون في الصباح، يدفعهم فضولهم والفراغ إلـى التمتع بشكل القطار صباحا، وكأنهم يشاهدون سيركًا مجـددا متجددا، لا يملون ذلك أبدا، فكل يوم حتى لو ساءت الأحوال الجوية يشاهدونه.

طالب مخضرم سِنه حلقة متوسـطة مـا بـين الطلبـة والموظفين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. لا يعلم أحد علـى وجه الدقة كم سنة قضاها في التعليم ولا كم سنة تبقت لـه،

عن له أن يستغل ذلك التجمهر اليومي لهذه الجماهير الكبيرة.

لفافة كبيرة الحجم ملفوفة بإحكام بورق الجرائد اليومية يسقطها المخضرم من القطار بعد مغادرته محطة تلك القرية بحوالي الخمسين مترا يسقطها من يده بين العربات كأنها سقطت منه عفوا.

المشاهدون كانت تستقبل عيونهم القطار قبل دخوله إلى محطة قريتهم، ثم لا تتركه عيونهم إلا بعد أن يختفي عنها، تسقط العيون على اللفافة.

يبدأ ماراثون حقيقي بالغ السرعة والقوة والعدد ويظفر بطل الماراثون باللفافة الجائزة محسودا من كافة المتسابقين، وبشغف بالغ منه وبفضول هائل من مسابقيه يفتحها، فإذا ما بداخلها شَعر رجال قصه الحلاق طوال يوم عمل في دكانه المجاور للطالب المخضرم.

يوميا كان المخضرم يمر على الحلاق قائلاً له:

- جهزت الأمانة؟.

- جاهزة يا صاحبي.

وتتكرر اللفة ويتكرر المشهد مرات ومرات، ولا يتعلم الناس، ويشربون كل يوم من نفس الكأس ويرغبون في

المزيد، لا المخضرم يمل ولا هم يملون، ولا راكبي القطـار يضنون بقهقهاتهم اليومية، بسـمة علـى وجـه المخضـرم والركاب وخيبة يومية للفائز بجائزة الماراثون الغبي.

* * * *

شاء حظ الرجل العاثر أن يمشـي موازيـا القضـبان وقريبا جدا منها. كان الرجل شاردا مغيبا تملؤه الهموم، تثقل خطواته، يداه بجانبه علامة استسلام فقد يئس من الصـراع مع الظروف. من يدري؟

لعله مريض أو فقير أو مريض فقير معا.

قطار العودة قارب على مغادرة المنصورة يكاد يلامس الرجل المهموم، لو داسه لأراحـه، فـالأموات لا يحملـون الهموم، هموم دنيا تركوها بكل من فيهـا ومـا فيهـا، وإذا بخيزرانة رفيعة طرية بضربة قوية قاسية مشفوعة بسـرعة القطار تلف وسط الرجل!

ويضحك البعض، ويضحك الكثيـرون، ويأسـف أقـل الناس عددا!.

الرجل لا يستطيع تحمل صاعقة الألم، يتلـوى حـول

نفسه، يحاول عض أي مكان نزلت عليه الخيزرانة من شـدة الألم، لكن ماذا يفعل؟ إلى من يشكو؟، من يعيد إليه سـلامة النفس والتعايش مرة أخرى بسلام جنبا إلى جنب مع القطار أو حتى مع عربة فول يسحبها حمار أو يدفعها بشر !.

ويمضي القطار في طريقه يحمل الظالمين والمظلومين معا، لا يهمه تصنيف الناس، ولا يعنيه شيء من هذا القبيل.

شاب على الأرض يمشي ومعه عصا خشبية قريبا مـن مكان ضرب الرجل المهموم يصطاد بتلك العصـا بضـربة عفية أفرادا كانوا يركبون على سلم أول عربة من القطـار، يقفز الشاب مهللاً فرحا فقد أصاب الهدف، رأى فعلته شـاب كان يركب على سلم العربة الأخيرة، ثبـت إحـدى قدميـه وبمشط القدم الأخرى وبكل قوة سدد رفسة حصان جامح إلى فك الشقي، لابد أن يكون الشقي قد فقد بعض أسنانه، أو سقط بالضربة القاضية نتيجة كسر فكه.

ويمضي قطار الفراعنة والعبيد، الظلَمة والمظلومين إلى غايته...

* * * *

قطاع ما قبل الصين (من ناحية المدينـة) يسـتطيعون بالميزة الاستراتيجية لموقع قريتهم التنفس والاشتباك أيضـا، إذ يمكن لأهل قريتهم أن يجتاحوا القطار أثناء وقوفـه فـي محطة القرية، ليقوموا بواجب الضيافة لفراعنة الصين علـى الوجه الأكمل وبكرم وسخاء.

ميزة استراتيجية ضد الميزة العدديـة، صـراع علـى زعامة عالم القطار.

كانت بالأمس مباراة الزمالـك والأهلـي، أو الأهلـي والزمالك حسب وضع المباراة في جدول الدوري التي تعطي لصاحب الملعب حق وضع اسمه قبل الآخر. المباراة حديث الناس في كل مكان، والقطار مـن أهـم أمـاكن الحـديث. المتناقشون كأنهم يرتدون قمصانًا باللون المميز للفريق الذي يتعصبون له، الكل متعصب مع أن كل واحد لا يدري سـببا منطقيا واحدا لهذا التعصب، لا فرق بين طفل وشاب وشيخ.

- يا أخي أنا عمري ما شفت واحد أهلاوي بينهم.

- عليه النعمة كل الزملكاوية في عبطك انت.

- إيه يا ابني انت وهو.. هِية الكورة بقت ديانة..؟ مـا يتحرق الفريقين ع اللي فيهم.

يتدخل رجل كبير السن:

- اسكت يا عم الحاج، مالك ومـال الكـورة، تلاقـي الكورة اللي على أيامكم كانت كورة جِبس!.

يرد عليه أحد الأشقياء فيتجنب الرجل الحديث:

- الله يخرب بيت الحكام، شفت البنالتي بتاع الزمالـك اللي الحكم الظالم ما حسبهوش، الحكم ده مرتشي، أنا عـايز ضميركم.. سيبكم مِ التعصب؟ بزمتُكم ما كان بنالتي..؟!.

- بزمتك ده كان بنالتي؟ - بتتكلم ع التعصـب وانـت أكبر متعصب!.

- طيب الأهلي ما جالوش بنالتي هوة كمان، واللا ده ما شفتوش؟ كنت بتتفرج بعين واحدة.

يرد عليه أحد الموجودين:

- والله انت حمار ما بتفهم حاجة.

- أنا حمار يا حمار.

وكلا المتشامتين ينتمي كل واحد منهما إلى قرية تتطلع إلى زعامة عالم القطار، ليكون القطار عالمـا أحـادي القطـب وتنتهي الحرب الباردة! هذا من الصين وذلك من قطاع قبله.

وتبدأ المعركة بعد قيـام القطـار مـن القريـة الأهـم استراتيجيا، وتشتد، وتسيل دماء حيث انتهت ميـزة الموقـع وقت اشتعال المعركة وبقيت الميزة العددية.

وكان أهل القرية الصين كرماء، أكملوا المعركـة فـي المدينة حول المحطة، وأبلى خُطاف حمودة الذي لم يشـترك في الحوار بلاء حسنًا، هو كعادته لا يتكلم، يتـرك لخَّطافـه الكلمات!.

معركة غبية، تفتقد لغبائها الأسباب الوجيهة، يبـدو أن معظم الحروب تتصف بالغباء حتى الحرب العالمية الأولـى والثانية، حتى الثالثة لو دارت عجلاتها لكانت القوة الدافعـة لتلك العجلات من وقود الغباء. انتهت الجولة الأولـى مـن المعركة وبقيت جولة العودة ـ وهي الأهـم ـ لأن الموقـع الاستراتيجي له في هذه الحالة القوة الحاسمة الساحقة.

أبلغ بعض الأذكياء من ركاب القرية الصين الشرطة.

اصطفت قوات الشرطة على جانبي القطـار، وأمـروا السائق بعدم الوقوف في القرية المميزة. وكانت الفرصة.

أخيرا عرف عالم القطار تدخل قوات أجنبية، لو سـمح للقوات الأجنبية بقواعد داخل ذلك العالم لانتهى الأمر !!.

انتهت الحرب الساخنة ولكن الحرب الباردة بين القطبين لم تنته، فلا استسلام مطلق للقرية الصين، ولا زعامة كاملة للصين، إنها زعامة منقوصة.

* * * *

يركب أحد الموتورين من القريـة التـي ترفـع رايـة العصيان، حظه أنه كان وحيدا بين ركاب القرية الأم، أفقـده الثأر صوابه، فلم يحسب أي حساب لكونه فردا وسط عربـة كاملة، أخذ يسب ويلعن مستعرضا كل ما في جعبتـه مـن كلمات السباب، تحرك القطار في قريته متجها إلى المنصورة وهو لا يدري، فقد أخذته الحمية واسـتولت عليـه تمامـا، وأغراه السكوت المطبق للفراعنة.

السباب ينزل على أفراد العربة كالسيل المنهمر والقطار يبعد، ويقترب من المدينة. يتزايد الغيظ ويغلي في النفـوس غليانًا.

كل من يشعر بوخز الشتائم يتوسم في الآخر أن يبدأ في الرد، والكل يغلي كالقِدرِ الكائم منتظرا صفارة قِدرٍ آخر يعلو صفيرها.

أحد الموظفين، كبير السن، لم يشترك طوال حياته فـي مشاجرة على الأقل في القطار، بل هو دائم النقد لمن ينفخون في نيرانها.

يرفع يده ليوجهها لوجه هذا الصفيق، وإذا بكل صفارات القدور الكاتمة تنطلق، وينطلق بخارها. أمطرت السماء أيـادٍ تهدر لكمات. لكمة، لكمتان، ثلاث بعدها كف الموظف، لكن لكماته كانت بمثابة أمر القائد العسـكري للجنـود بـالهجوم فانطلق الجنود يحصدون.

ضرب أخونا كما لم يضرب أحد، لا يدري من ضربه، ولا يدري أين اختفت سكينه، ثم قُذف به من القطار، فتلقـاه نبات الحلفا، ربما كانت أمنيته بعد الأمر بالهجوم أن يقذف به إلى جنة الحلفا... قد يكـون الخـروج مـن العـالم أمنيـة للبعض !!.

* * * *

لماذا لم نحسم الزعامة لصالح قريتنا؟ هل نحن جبنـاء؟ ماذا ينقصنا؟ لابد أن نفرض سيادتنا. في قريتنـا يمكـن أن نوقف القطار رغما عن سائقه وراكبيه ليخرج أهـل القريـة

عن بكرة أبيهم وبأيديهم كل ما يمكن الضرب به، نفعل ذلـك مرة مرتين لنفرض سيطرتنا إلى الأبد، ولا تعلو بعد كلمـةٌ على كلمتنا. كيف نرضى بأن تكون كلمة أهل الصين هـي الأعلى؟ إنه من الجبن حتى أن نجعلهم متساويين معنا؟ لابـد أن نعاملهم كما يعاملون أهل القُرى التي تليهم في الترتيـب بالنسبة للمنصورة.

ثورة يقودها موسى، أخذت منه كل وقته واهتماماته، إنه مبعوث القَدر لتصحيح الأوضاع، والثوري الذي لا يفرز في كل الأجيال، ولكن يستأثر بإفرازه جيل دون سائر الأجيـال: قدر!.

كانت أفكار موسى تعبر عما يدور في نفـوس بعـض أهالي قريته فتحلقوا حوله – وحدة فكر! وكان لابد للثوار من سلاح! أصبح كل واحد يحمل أكثر من مطواة، تلـك التـي تُسمى قَرن غَزال.

ما إن يركب القطار من نافذته، يتجول بعينيه بين ركاب العربة، القطار يقف في قريته، إذا خلفه جنود قرية كاملـة، تظل عيناه تقدح شررا طوال فترة الوقوف تلـك، حتـى إذا غادر القطار وأمعن في السير تشاغل فـي العبـث بقـرن

الغزال.

اشتبك موسى مع أحد الركاب، أدمـت قـرن غزالـه الراكب في أكثر من مكان، كلها جروح سطحية لكن منظـر الدماء كان بشعا. كان سيء الحظ لا ينتمي إلى القريـة الأم، كأنه لا يكفيه ظلم فراعنة الصين.. لم يوجد ثمة رد فعل من الضحية!.

انطلقت أبواق الدعايات، موسى الخطير المحرر الثـائر أتى بما لم تأت به الأوائل، لا صوت يعلـو علـى صـوت موسى، موسى قائد معركة الكرامة.

الأساطير حوله بما فعله وأكثر مئات المرات بمـا لـم يفعله، خيال الناس واسع ولا يشغله شاغل، نسجوا حول أبو زيد الجديد البطولات الوهمية! ربما كان أبـو زيـد نفسـه شخصية وهمية!. الناس يحتـاجون لشخصـية يعظمونهـا، يقدسونها، يحيطونها بغموض القدرة الساحقة، ربما تسلل ذلك إلى أحفاد عبر الموروثات من الأجداد!.

صدق موسى نفسه، وتقمص شخصية جديـدة، النـاس يصنعون الأساطير ويصدقونها، وقد توضع جنبا إلى جنـب مع الحقائق. هالات الاحترام والتقدير والامتنـان المختلطـة

بإشعاعات الخوف حوله في كل مكان ينثرها مريديه حوله!.

الفراعنة تركوا موسى في عاملـه الهلامـي طالمـا لا يتعرض لأحد يهمهم أمره، ربما كانت هناك اتفاقية عقـدتها العقول الباطنة للطرفين... أن يسـتعرض الأول مـا يحـب استعراضه لكن دون أن يمس الطرف الآخر.

أحد الفرسان الحقيقيين، كان يدخل النزالات ولا يضـع في حسبانه اعتبارات مميزات قريته الصين، كان يدخلها في المدينة، في المدرسة، في أي مكان إذا اضـطر اضـطرارا لدخولها. – كان يتدخل لرد اعتداء يراه من متسـلط علـى ضعيف، لقمع معاكسات صبيانية وقحة على فتاه، كـم دارت بينه معارك مع الرعناء من أهل قريته الذين يعتـدون بـلا أسباب حقيقية على ركاب القُرى المستسلمة، كـان يحسـمها سريعا جدا بضربات قوية سريعة محكمة.

مجتمع القطار لا يخلو إذن من مصلحين!.

يمشي موسى في المدينـة متبختـرا مختـالاً منتفخًـا كالطاووس. حوله مريدوه يرى في وسطهم كأنه أمير حولـه الأتباع. الفارس يرى موسى في زينته، كان الفارس وحيـدا، لم يستطع تحمل هذا الغرور، لا يطيق ذلك، لابد من وضـع

إبرة في جدار هذا البالون فيذهب منظره المؤذي ولا يعود.

المطواة في يد موسى كأنها ميدالية. ذهب الفارس إلى موسى.

- انت يا موسى؟

انت ما تعرفنيش يا ابني ولا إيه؟ انت مش عايش في الدنيا؟!.

ها نتعرف كويس – خُد يا موسى – سيل منهمر مفاجئ ساحق من اللكمات الرائعة العنيفة، لم يتوقعها موسى أبدا وهو في زمرته، ترنح البالون المنتفخ على آثارها.

الأسطورة تتحول إلى بخار يتشتت أمام صانعيها، كانت مفاجأة لهم لم تستوعبها بسرعة عقولهم، فهرعوا في كل اتجاه جريا، كل ينشد السلامة، وتركوا الزعيم ملقى على الأرض.

- أوف، إنتَ موسى..؟ إتكلم.

لم يتكلم المنطاد الذي كان منتفخًا وبكى موسى كالنساء. يبكي آلامه، سلطانه الذي تبخر، أسطورته تناثرت كغبار في يوم عاصف!!.

* * * *

عادل وأبو الفضل، ثنائي، توأمان، أصدقاء إلى الأبـد، هما كل هذا وأكثر. متلازمان في الحل والترحال، تجدها معا في القطار، بعد أن يعودا إلى القريـة ويتنـاولا غـذاءهما ويرتديا الزي الوطني، تجدهما معا حين يحين موعد نومهما.

هما من الموظفين الملتزمين جدا بمقتضـيات الوظيفـة وحرفية لوائحها، نسخة واحدة. كانا متوحدين لدرجة تصور أنه إذا مات نصف الجسم، أليس مـن الأولـى أن يختفـي النصف الباقي تحت أطباق الثرى؟!.

يقف عادل وأبو الفضل بالطبع معا في قطـار الـذهاب صباحا، القطار مزدحم كما هو الحال دائما. خرج عادل عن النص، مد يده من وراء ظهر شـخص آخـر كـان يقـف بجانبهما، ليشد أذن أبو الفضل مداعبة، كانت الشدة عنيفـة، فليست لديه خبرة سابقة في فن المداعبات، هذا شأن المبتدئين دائما!.

احمر وجه أبو الفضل، صبغ صبغة مفاجئة بلون الماء التي تجري ساخنة في عروقه، عرف أن صديقه هو الفاعل، لكن الألم كان عنيفًا، أفقده السيطرة على نفسه فانفجر كالقنبلة

الموقوتة التي تباغت ضحاياها فجأة. بركانه لا يقـف يلقـي بالمقذوفات والحمم في كل اتجاه، يسب صديقه ويلعـن، ثـم يسب ويلعن ويكرر.

استقبل عادل كل ذلك بابتسامة عريضة مقسما أنه كـان يمزح:

- هزار؟! – هزار إيه يا حمار؟! ده اسـتهتار... قلـة قيمة... غباء!.

- حمار؟ - الله يسامحك، صادقتك عشرون عاما، كأنما دخلت من باب وخرجت من باب آخر، وكأن شيئًا لم يكـن وبراءة الأطفال في عينيك – الله يسامحك يا صاحبي.

وفي اليوم التالي كانا معا وكأن شيئًا لـم يكـن بـراءة الأطفال في عينيهما!.

* * * *

في الأيام الدراسية التي تسبق الأجازات، أو لأي سـبب من الأسباب التي تراها المدارس يكون يوم الدراسة نصـف يوم، فيخرج الطلبة بعد الحادية عشـرة. قطـار البضـاعة متحرر من المواعيد ولكنه قد يغادر المنصورة في مثل هـذا

الوقت فيستقله هؤلاء.

القطار بطيء جدا، طويل فـي آخـره تلـك العربـة الصغيرة، المفـروض أنهـا خاصـة بالركـاب وبالتـالي الكمساري. القطار المخصوص هذا يختار له كمساري مـن الذين يئست الشركة مـنهم، ولا تسـتطيع طبقًـا للقـوانين الاشتراكية فصلهم بحال من الأحوال. أصـبح المخصـوص ملجأ لهذه النوعية من مفتشي التذاكر.

قد يحاول الكمساري ممارسة عمله، الطلبة لا يركبـون عربة الركاب بل يركبون عربات البضاعة والبضاعة هـذه هي الرمال التي تُنقل من مناطقها في آخر الخط إلى حيـث يحتاج إليها. الكمساري لابد أن يقفز من عربة إلـى أخـرى ليصل إلى هدفه، في نفس الوقت الذي يقفز فيه يقفز الطلبـة في الاتجاه المضاد، ومن لم يستطع يقفز إلى العربة التاليـة، حتى إذا أراد الكمساري القفز إليها قفزوا في الاتجاه المضاد. بعضهم يركب أول عربة بعد القاطرة، عربة الركـاب فـي نهاية القطار، على الكمساري أن يتجاوز كل العربات ليصل إلى العربة الأولى، حينما يصل الكمساري إلى العربة قبـل الأولى ينزل الطلبة منها ليلحقوا بالعربات الأخرى. سـرعة

القطار تمكن الطلبة من ذلك تمامـا. بعـض هـؤلاء معـه الاشتراك الشهري الساري المفعول ولكن يحلو له اللعب مع الكمساري!.

بعضهم ينزل من العربـات الأماميـة إلـى الحقـول المجاورة، حيث توجد حقول الكُرنـب يخطـف واحـدة، أو حقول الخَس فيقطف بعضا منها، لتوزع الغنيمة بعد ذلك على من شاء منهم ويتعفف الآخرون.

فإذا حاول القطار (أبو وش اسود) تهدئة سرعته الهائلة أصلاً ضرب أحدهم الخُطاف الموصل بين العربات فتنفصل عربات القطار، ويطلق من فصلوا العربات الصفارات لينتبه السائق بعد حين أنه ترك بعضا من قطاره، فيهدئ القـاطرة لتلحق به العربات المفصولة التي تكون مـا زالـت تسـير بالقصور الذاتي، وربما رغبة منهـا فـي جمـع الشـمل، ويتصاعد نداؤهم للسائق الذي لا يسمع شيئًا في الوجود غير الأصوات الصادرة مع البخار المنطلقة من كل مفصل مـن مفاصل القطار المتداعية يهتفون:

- ياللا يا سواق المعزة.

السائق لا علاقة له بالدنيا وما فيها، بعد رحلة القطـار

المقررة عليه أكيد أنه لا يستطيع السمع، ولا أن يرفع يدا عن يد، يرتمي بجسمه المشبع بالزيوت ليعود حين يستيقظ مـن موته النصفي إلى القطار من جديد.

هو منفصل عن العالم في قطار منفصل عن زمنه يسير عبر قرى لها زمن خاص، تأريخ خـاص، عـالم خـاص، خاص!!.

* * * *

القطار كالقائمين عليه لا يعرف الأجازات ولا يعـرف عدد ساعات محددة للعمل اليومي، له قانونه الخاص!

يتزايد العبء على القطار في الأعياد، القُرى لا توجـد فيها دور للسينما، تعود بعض الفلاحين مـن القريـة الأم أن يزوروا المدينة في الأعياد بغرض أساسي هو دخول السينما، وأكل ساندويتشات الفول والطعمية، القرية أيضا لم يكن فيها أي نوع من المطاعم، الناس في القرية ينتجون ما يحتاجونه، يقصرون جل ما يستهلكونه على ما ينتجونه، ولا يحتـاجون أحدا يطهي لهم ما يطعمون.

يذهبون إلى المدينة في جماعـات، يحتمـي بعضـهم

ببعض، يسترشد بعضهم ببعض، أكثرهم ما له خبرة بالمدينة ولا بطُرق العيش فيها، تبدو رحلتهم وكأنهـا رحلـة إلـى المجهول والمخاوف من المجهول كثيرة، والصـحبة تـدفع الكثير من هذه المخاوف.

يرى إخواننا أفلام برنامج العيد التـي تأخـذهم أخـذًا؛ فتدور أحاديثهم حولها ربما للعيد التالي. أفلام العيد عادة من الأفلام الخليعة تهزهم بعنف، تدير رؤوسهم، تغيبهم ولو قليلاً عن واقع يلتصق بطين الأرض ويدور عليه وحوله.

شاب رياضي المنظر، شكله يؤكد أنه يمارس لعبة كمال الأجسام يرتدي قميصا بنصف كُم، أو على الأصح ربع كُم، عضلات ساعديه منتفخة، وعروقها أيضـا كـذلك، عظـيم الرقبة، هائل عضلات الصدر يلف حول قطار العودة لهؤلاء الذين عادوا توا من السينما في جماعات أيضا. الشاب فخور جدا بعضلاته دائم الهز لعضلات الصدر، يثني أحد ذراعيـه لتظهر استدارة وضخامة عضلة الساعد، يهز رقبتـه بعنـف شمالاً ويمينًا بلا مناسبة، كأنما يختال على الجميع.

الواد منفوخ ليه كدة، ما تيجي نهويـه. يقتـرح أحـد الفلاحين الذي رأى وسمع عن جولات وصولات طلبة القرية

الأم التي ينتمي إليها، لماذا لا يضيف إلى هذه الجولات جولة أخرى.

يا عم ده زي الوحش ممكن يضـربنا كلنـا زي فريـد شوقي!

ده منفوخ ع الفاضي، شايف يا وله نافخ نفسه ازاي، أنا ها تهبل، الواد ده ها يهبلني، لازم نهويه، إحنا كتير نتام عليه نوضبه ويخاص الموضوع.

استمر الفتى في اللاف حول القطار، استمر في هز ونفخ وتكوير عضلاته، ينظر هو نفسه أحيانًـا علـى عضـلات الساعدين بكل فخر وإكبار، يرى فعلاً كأبطال هذه اللعبة!.

وبعد مداولات، إقبال وتراجع، حسم الأمر حماس ذلـك المتحمس شديد الاندفاع، واندفعوا كالنحـل علـى صـاحب العضلات دون كلمة واحدة وفي مفاجأة لم يتوقعها وقبـل أن يحرك ساكنًا انهالوا عليه من كل حـدب وصـوب فصـرخ واستغاث كما تصرح النساء، ثم ولى كما تولي الأطفال حينما يتملكها الرعب.

عاد المهاجمون إلى القطار بمنتهـى الفخـر والسـعادة بإضافتهم التي أضافوها.

كانوا أكثر من عشرين فردا، ركبوا في مكـان واحـد. برز لهم أحد الأشخاص من القرية التي ترفع راية العصـيان وتكافح من أجل الزعامة:

- فرحانين قوي اللي ضربتوه، لو كنتم رجالة بصحيح كنتم تنزلوا له واحد واحد، مالكم ومالـه، شـوية فلاحـين صحيح!.

كان المعارض وحيدا في العربة، مصـادفة لا تتكـرر كثيرا، أسكتوه بالكلمات وهددوه بالسحق إن لم يكتم فمه، كان التهديد جادا واللهجـة صـارمة آثـر الشـخص السـلامة بالانسحاب والهدوء، ولكن إخواننا كانوا قد أضمروا شيئًا.

قبل دخول القطار قرية المعارضة بقليل، هجموا عليـه، ثنوا ذراعه بمنتهى القسوة والعنف إلى ما قبل الكسر بقليـل وأبقوه منثنيا على هذا النحو وأمروه بألا ينطلق حرفًا واحدا، ومطواة قرن غزال تؤلم جانبه، طرحوه أرضا وجلس فـوق أحد الفلاحين، وغطاه تماما بجلبابه الفضفاض حتـى غـادر القطار محطة القرية.

وعرف القطار الأسرى – اقتادوا الأسير المقتول رعبا إلى قريتهم، لا يعرف عما سيفعلوه بـه شـيئًا، لابـد أنهـم

سالخوه، معلقوه سيؤهلوه للشحاذة؟ ربما الأسير منتهى تماما، انتهى مفعول قواه، كل قواه!.

نزلوا بالأسير إلى محطة القرية، كان حمودة في زيارة صبري حيث يقبع صبري في كشك خشبي يسـمي محطـة القرية، كانا يتبادلان الأحاديث، والتدخين وبعض ما يدخلـه التسلية، لا يستطيع كلاهما البعد عن عالم القطار!.

الأسير يعرف صبري وحمودة والخُطاف، يا لهـا مـن نهاية أسود من ليل القرية الغارق في الظلمة لغياب القمر.

- سيبوه انتم بقى، متشكرين قوي، مهمتكم انتهت، إحنا ها نعمل له الواجب.

- الواجب! ما هذا اليوم الأسود، ألم يفعـل الفلاحـون الواجب حتى يفعل صبري وحمودة الواجب، كم أنت قاسـية أيتها الأقدار!!.

الأسير مستسلم تماما – شأن أي أسير، اقتاده صـبري وصاحبه إلى كشك المحطة، أعطوه كوبا من الشاي، طمأنوا بادلوه الأحاديث ليذهبوا وحشته وفي أول قطار قادم متوجـه إلى المنصورة أركبوه وأوصى صبري عليه الكمسـاري ألا يطالبه بتذكرة...

تم تسليم الأسير! – حتى فلاحو القرية!!.

* * * *

عليوة لا يعطي الزحام اهتماما، ولا يعير تواتجه من لغو وصخب ومشاجرات أُذنًا. وقته في القطار ذهابا وإيابا وقت مذاكرة، لا يضيع دقيقة، ما إن يستقر وضعه وتجد قدماه أرضا تقف عليها حتى يبدأ في الاستذكار يقرأ بنهم غريب، وكأنه يلتهم السطور، يتغذى عليها ولا يعرف طريقًا للشبع عليوة مستغرق تماما.

- صم يا خويا صم، ما فيش وراك غير الصم، ابقى قابلني، والله ما انت فالح!.

- انت اللي هتبقى فالح يا صايع؟!

- لأ، لأ، خليك حلو، اتلهي في شغلك أحسن، حظك حلو اللي انت من بلدنا، والله حظ حلو!.

- كنت ها تعمل إيه يعني؟.

- هاعمل إيه؟ - يا نهارك اسود – بتسافر معانا كل يوم ومش عارف ممكن اعمل معاك إيه؟!.

يتدخل أولاد الحلال:

- عيب انتم من بلد واحدة.

من أجل عيون البلاد انتهى المشهد عند هذا الحد!.

* * * *

فاتنة القطار لحظها السيئ تقع قريتها في نطاق سـطوة الفراعنة، طويلة، ممشوقة القوام، شعرها الأصـفر الـذهبي يتدلى إلى ما تحت خصرها عنايتها بشعرها وفخرها بـه لا يخفى على أي عين ولو كانت على وشـك الخـروج مـن الخدمة. لا تحب الجلوس على كرسي، يمكنها ذلك إذا أحبت في كل لحظة يمكن أن يوجـد لهـا كرسـيا لـو أرادت .. حظوظ!.

تقف بين الكرسيين المتقابلين مسندة ظهرها إلى الشباك، ليتحرر شعرها من زحام العربة منطلقًـا خارجهـا تداعبـه الريح، فَرِحة، نشِطَة بتلك المداعبة الجميلة، تسافر خصلات شعرها الذهبية في كل اتجاه.

شعر أصفر على وجه أبيض وعيون لا تدري من أيـن جاءت زرقتها، وابتسامة تبرمج وجههـا عليهـا، واضـحة الأناقة، تعلم أنها محط الأنظار حتى من زميلاتهـا، فـزادت

تعاليا، وزاد أنفها ارتفاعا على ارتفاع حتى تمنى الجميـع أن يوضع هذا الأنف المرتفع في التراب.

- البنت دي متنطظة على إيه؟.

- صحيح مناخيرها عالية قوي، حاجة تغيظ، بس عايز الحقيقة؟ البت تستاهل، بت قشطة، مش الغفر بتوعنا!.

- لأ، لأ، ما لكش حق! – ده لا يمكن يكون إنتاج الفجل إحنا عارفين إنتاج الفجل كويس – دي بت لوز، لوز مقشر، انت ما بتفهمش في الصنف يا صاحبي؟ - دي قمشـة فـي السليم.

- والله لأحط مناخيرها الأرض.. أقسم حمودة

أخيرا نطق حمودة، أنطقته الكائنـة الجميلـة، حركـت عضلات لسانه لكنها أكستت سِن خطافه.

مشاعر جمة متلاطمة تدور وتضطرب وتـزدحم فـي أعماق حمودة، جديدة عليه، ما كان يعانيها قبل ذلـك، كـان يرى وكان يرى نفسه لوحا من ثلـج صـلب لا يسـيل ولا يخدش، ثلج معمر كثلوج القطب الجنوبي.

عبثًا حاول تهدئة أعماقه المضطربة لـو يسـتطيع أن يسحبها من أعماقه بخُطافه النافذ لما تردد، غزت حمودة من

الداخل – حمودة تحت يد الاحتلال!! كان لابد لرد فعل لذلك البركان الداخلي المستبد.

ماذا يفعل وليست له سابق خبـرة ولا حتـى معرفـة بالعواطف، ذلك الوافد، المستبد، الجديد؟

حمودة يستخدم وسائل بدائية، رسـالة غراميـة كتبهـا باسمه المتخصصين. أكد كاتبها لحمودة أن البنت ستقع، حتما ستقع في شباكه؛ فكلماته أكثر تأثيرا من خُطـاف حمـودة. ليست هذه أول مرة، عنده قائمة بمن تأثرن ووقعـن تحـت تأثير كلماته المعبرة. حمودة يهيم في العالم الجميل، حمـودة الجديد، - العاطفي!.

بات ليلة يفكر كيف تصل الرسالة إلى الأصابع العاجية لتقع عليها الأعين الصافية فتبلغ قمة التأثير وتسقط ـ على الرغم ـ دموعا بلورية، كأنه رأى الدموع، الدموع لا تسقط على الأرض، هذا النوع من الدموع لا يسقط إلا في القلوب لأنه نزل من القلب فلا يسقط إلا في القلب.

لم ينقصه إلا أن يختار إحدى الفتيات لتوصيلها بطريقتها هي، الأنثى أقدر على الأنثى. أعطى الرسالة إحدى قريباته،

أخذت قريبته أحد كتب الفاتنة بطريقة جافة سـاذجة ودسـت فيها الرسالة بطريقة غبية مكشوفة لكل الواقفين.

أخذت الفاتنة الكتاب غاضبة، فتحته، أخذت الرسالة، لم تنظر فيها، لم تقرأ حرفًا واحدا منها بل مزقتها بكـل هـدوء وبلا كلمة توبيخ واحدة.

كان حمودة يراقب الموقف بصبر فارغ لا يغني من في مثل موقفه.

طارت أحلامه، تخلت عنه، قذفت به الأحلام من عليائها ليصطدم بشدة بأرض الواقع الصلبة القاسية. تبخرت الأحلام وبقيت آلام الاصطدام.

- والله لا أحطّ مناخيرها الأرض – أقسم لثاني مرة.

لكن القسم كان مختلفًا هذه المرة، قسم موتُور لا يلـوي على شيء إلا الأخذ بالثأر، ثأر دونه الحياة نفسها.

وبدأ داخله يغلي، لكن ما يغلي هذه المرة كان مختلـفَ المادة تماما عما كان يغلي في داخله قبل قليل – سبحان مغير الأحوال !!.

* * * *

ماذا أنت فاعل يا حمودة..؟ من يجرؤ على النيل من كرامتك في مملكتك! وماذا بعد أن يعرف ما حدث؟ ستكون نكتة الموسم ومسار السخرية، لابد أن الكثيرين جدا يتمنون لو سحقت أنفك بذرات التراب حتى عظامها، كثيرون يتربصون بك الدوائر، منهم من ينافقونك خوفًا، يضحكون في وجهك، ويسمعونك ما تحب، لكنهم في أعماقهم يتمنون نهايتك بل ويتمنون أن تكون نهايتك أسوأ النهايات.

هل يجدي الخُطاف..؟ تجذب به الفتاة إليك فتقابل وجهها بقبضتك، فتسيل دماؤها؟ لا... لا... لا يجدي الخُطاف هنا ليس من كرامة خُطافك أن تضرب النساء به. آه لو أستطيع قطع اليد التي مزقت رسالتي أمامي وكأنها تمزق قلبي، لما ترددت لحظة واحدة ولقطعتها خلية خلية تقطيعا تتحدث عنه الأجيال جيلاً بعد جيل!.

وأصبح حمودة مسهدا، لا يعرف النوم، لكن شكله الهادئ دائما وقلة كلامه المعهودة لم تكشف للناس عما بداخله، اللهم إلا بعض المقربين جدا منه.

لكن هل انتهت الحيل وانقرضت وسائل الانتقام؟. يؤمن تماما أن الحيل والوسائل وجود لا ينتهي أبدا، كل ما هنالك

أن يجد في البحث عنها، وأن تكون له القدرة على الانتقـاء السليم من المتاح منها!.

كانت بودرة العفريت هي التي انتقاها.

وضع قليلاً منها في ورقة وركب فـي الشـباك التـي بجانبها ويسبق شباكها حتى يستغل اتجـاه الـريح، الفاتنـة كعادتها ظهرها للشباك وجزء من رأسها ورقبتها خارج حيز العربة في الهواء الذي يحركه القطار، وانسـابت البـودرة بحرفية وهدوء إلى رقبتها، ويبدو أنها تجاوزت الرقبة بكثير.

واشتعلت النيران في جلدها تنهشه نهشًا، تقطع جلـدها بكلتا يديها، تسلخه سلخًا، واستدار حولها خليلاتها يسألن عما حدث، يسألنها عما لا تعرفه! تحلقوا حولهـا لا يـدرين مـا يفعلن. قالت لهن كأن إبر الدنيا كلها ساخنة تخترق جلـدي. البنت لا يمكنها خلع ملابسها كل ما كانت تستطيعه أن بـدت راكعة، والبنات حولها لا يمكنها سلخ جلـدها بعيـدا قـدر الإمكان عن أعين المتطفلين التي صوبت من كل اتجاه إليها.

- الرسالة المرة دي وصلت، الحدق يفهم! مـا كانـت الرسالة الأولى أحسن! كانت هذه من المرات القليلة التي كان يسمع فيها صوت حمودة.

* * * *

ترى، هل لفتت تلك الرسالة القاسية نظرهـا؟ قيـل أن المحبة الشديدة تأتي بعد العداء الشديد. إن كنت قد ألهبت لها جلدها فهي قد أدمت قلبي، ليكن ذلك واحدة بواحـدة ونعقـد اتفاقية صلح، تعقدها عيوننا. ماذا يضـير صـاحبة العيـون الجميلة لو أرسلت لي عيونها رسالة حب؟، رسالة هي الدنيا، جنة الدنيا.

وأخذت الأماني تتوارد ثانية إليه، ترك لتخيلاته العنان، واستولت عليه أحلام يقظة وردية!.

آه لو يستطيع الذهاب إلى قريتها الآن لذهب. إنه يـأمن من شر كل من يعرفوه ويعرفهم، لكنه لا يأمن شـر مـن لا يعرفونه، فقد يأسره هؤلاء هناك ويؤدبونه إذا عرفوا ما جاء من أجله. وبدأت حركة زمانه تتثاقل، عليه أن ينتظر قدومها في الصباح، وينتظرها من الصباح حتى العـودة، لابـد أن

يتخلى عن صمته هذا، لابد أن يفعل شيئًا من أجل أن يفـوز بقلبها.

ظهرت الفاتنة أكثر جمودا وأكثـر عجرفـة، ظهـرت كطاووس حقيقي لا يرى في الوجود إلا نفسه.

ضاق صدر حمودة بالصبر، أحس أنه تائه فَقَد بوصلته في محيط هائج، يتمنى إحدى النهايتين إما إلى البر وإما إلى القاع. أوزع الفتاة حاملة الرسالة أن تكلمها عن حبـه لهـا، صدتها الفاتنة بفظاظة غريبة – كيف تكون صاحبة كل هـذا الجمال بهذه الفظاظـة؟ لشـد مـا يحتـوي الإنسـان مـن متناقضات!.

حاملة الرسالة ازدادت حنقًا على حنق، نقلت مـا ردت به الفاتنة، وأضافت إليه إضافات تعرف تأثيرها تماما علـى حمودة. تحولت كتلة حمودة بكاملها إلى كتلـة مـن نيـران الغضب.

لابد أن يفرغ شحنة الغضب الهائلة بداخله، وإلا أكلتـه أكلاً، وجاءه نفس السؤال السابق، ماذا أنت فاعـل بهـا يـا حمودة...؟!

حمودة لا يحلو له الركوب إلا في الشباك، ظهره إلـى

داخل العربة وباقي جسمه خارجها، يرى شعر الفاتنة الهائل يموج في كل اتجاه كأنه يتحداه، يسخر منه.

لم تَبر بقسمك بعد، فأنفها ما زال في السماء، وشـعرها يخرج لسانه لك؟

في الصباح كانت تركب كعادتهـا وشـعرها يمـارس هوايته في مداعبة الهواء، وأعين المسافرين، ويوخز حمودة ويتحداه.

حمودة كان يركب في الشباك المجـاور. وقـف ويـده تمسك بالخشب الموضوع فوق سطح الركاب للركوب، واليد الأخرى بها مقص عظيم الحجم.

انحنى حمودة انحناءة عظيمة، انقض كالنسر بـالمقص الهائل على شعرها.

طار الشعر الذهبي مع الريح كقصاصات رسالته.

ماذا يتبقى للطاووس لو نتف ريشه؟!.

انهارت الفتاة انهيارا كاملاً، غطوا رأسها أنزلوها مـن القطار لتأخذ الاتجاه المعاكس لتعود إلى قريتها ولكـن أيـة عودة!! وماذا يفعل لها من كانوا معها وعـاينوا مـا حـدث لها؟!.

أعاد حمودة المقص الهائل إلى الترزي صـديقه، كـان المقص في هذه الحالة أمضى بكثير من سن خُطافه فلكل أداة مجالها!

استراح حمودة وخمدت نيران غضب كانت ستحرقه لا محالة!.

ظن حمودة أنه في أمان من رد الفعل. من الذي يجـرؤ من قريتهم على الانتقام منه في مملكته، هو لن يذهب إلـى قريتهم، لكنهم يموتون لو قطعت صلتهم بالمدينـة، إذا فهـم يحتاجون إلى مملكته، هم بعض الوقت تحت حكمه، يمكنـه محاكمتهم في هذا الوقت.

عمدة قرية الفاتنة مع وفد مرافق له يأتي في عصر يوم انهيار مملكة الشعر، أعلى تمثيل سياسي لقريتهم.

والد حمودة كان رجلاً يعرف الحقوق ويقـدرها، كـان ممن يفصلون في المنازعات، مشهورا بالوقوف إلى جانـب الحق والخوف من الله.

كيف يصدر هذا من ابنه، وقد كان يأمل فيـه الكثيـر والكثير؟

علق والد حمودة ابنه من قدميه بحبل مربوط في حلقـة

من حلقات سقف البيت كانوا يستعملونها حين يكبسون أكياس القطن، وجلّده أمامهم. وأقسم أنه لن يعفو عنه، ولن يرحمه من هذا التعليق، إلا إذا عفوا هم عنه أو خرجت روحه. ذلك بعد أن قام لهم بواجب الضيافة على أحسن ما يكون... وعفوا عنه!!.

* * * *

إلى متى نرضى بهذه المذلة، ونبقى تحت رحمة الرعناء؟ لماذا هذا الاستسلام المهين لظلم مجموعة قليلة ممن لا أخلاق لهم، يغريهم سكوتنا، وسكوت من يستطيعون سحقهم من ذويهم وأهل قريتهم؟. إنهم مهما كانوا ليسوا قدرا. أنعيش في غابة هؤلاء المهازيل هم أسودها؟ لماذا نرضى تقَمص دور الحملان؟ بسبب هؤلاء أشباه الأطفال أو أشباه الرجال، نُصاب بانفصام الشخصية، شخصية في قريتنا نتخلى عنها تماما إذا ركبنا هذا القطار اللعين لنرتدي جلد الحملان والأرانب!! أن نكتفي من الدولة بسوطها المرفوع علينا دائما؟ هل دورها الوحيد أن تلهب ظهورنا وأقفيتنا حسب الأحوال؟ هل هذا القطار دولة داخل الدولة؟

أخذتْ الأسئلة تتزاحم على رأس الشباب الصغير رغم

أنه حديث عهد بركوب القطار، ولم تمتد يد الظلم بعـد إلـى وجهه أو قفاه، لكنه رأى المظالم بعينيه واسـتباحة حرمـات الناس، ولا يستطيع أن يحرك ساكنًا أو حتى يتأفف. كانـت كل يد ظالمة تمتد أمامه على مظلوم كأنها تقع عليه كله. ماذا لو لم نأخذ على يد الظالمين؟ ألا نكون بذلك السكوت المهين ظالمين مثلهم؟. هم يظلموننا ونحن نظلم أنفسنا أيضـا بهـذا العجز المهين.

كتب هذا الشاب إلى كبرى الجرائد اليومية القومية.

"ارحمونا من القرصنة، من قراصنة الصين، من يحيمنا من اعتدائهم اليومي علينا وعلى سيداتنا، إلـى مـن نشـكو هؤلاء الفراعنة؟ ارحمونا يرحمكم الله".

جحافل الشرطة تغزو المحطة الرئيسية حيث قطار العـودة الرئيسي على وشك القيام. معظم المشاغبين لا يركبون القطار إلا بعد أن يدق جرس قيامه فيقفزون إليه عبر الشبابيك، كان بعضهم قد قرأ الرسالة التي آثر صاحبها ألا يذكر اسـمه، ولكنـه ذيلهـا بمواطن من قرية....... توجس المشاغبون خيفة وابتعدوا يراقبون ما ستفعله هذه الجحافل التي لا تُصد، خصوصا وقد التفوا حـول قطارهم دون القطارات الأخرى.

تهجم الشرطة على القطار. عليوة يستذكر ولا يأبه بما يدور حوله، ما له وتجمع الشرطة، أكيد أنه خارج اهتمام الشرطة.

- انت منين يا وله...؟

ينظر عليوة ويقول:

- إيه يا وله دي. احترم نفسك!.

- يا نهار أبوك إسود. كلام البيه كويس يـا ابـن....... والتهب قفاه.

اقتادوا عليوة وبعضا من قريته القرية الأم إلـى قسـم الشرطة، لم يسأل أحد منهم شيئًا.

في قسم الشرطة نالوا من الضرب كل أنواعـه، ومـن الإهانة كل ألوانها على مدى يومين كاملين. ثم تحرر لكـل واحد منهم محضر.

خرج عليوة من قسم الشرطة إنسانًا آخر. مزق كتبه كما مزقوا جسده، وانطفأت كل شموع الأمل في المستقبل أمـام عينيه. شعر أنه انتهى كإنسان، فقد قتلـوا كـل مـا كـان بداخله!!.

* * * *

قبيل الفجر بقليل، والظلام حالك، البرد الشديد يسـيطر تماما على الأجواء، برد يجمد الأطـراف، يوقـف الحيـاة، مرعب أقعد الناس في بيوتهم يبحثون عن دفءٍ عليل تحـت أغطية تحتاج إلى الغطاء. ينهمر المطر بغزارة شديدة كأنـه غاضب على القرية المستسلمة، تحولت الشوارع إلى بـرك طينية غير مأمونة الجانب.

لا يرى على القرية أي أثر للحياة، حتى الكلاب كفـت عن العواء، والضفادع في بياتها الشتوي، والحشرات الطائرة ما لها والشتاء، وبدت البيوت كأشباح كالحة توحي بـالموت أكثر مما توحي بالحياة. من ذا يغامر بالخروج من بيته فـي هذه الظروف؟ سيظن من يراه إن وجد أنه ليس مـن جـنس البشر!، ربما وافد من عالم آخر، وافد لا يحسـب حسـاباته جيدا، أو لا يعرف عن عالم الحسابات شيئًا بالمرة.

في هذه الظروف يرى صبري حاملاً فانوسه العتيـق، يبدو الفانوس واهن القوى، كأنه مـريض يتشـبث بالحيـاة، بداخله الصباح يزيح أقل القليل من الظلام الكثيف الذي يطبق على كل شيء. لا يستطيع أحد السير على الضوء الهزيـل الذي يتسرب إلى دائرة ضيقة جدا.. غير إنسان تدرب على

حمل هذا الفانوس سنوات عديدة.

وعلى صبري تجاوز بحيرات طين غير آمنة في مسافة غير قصيرة، حتى يصل إلى الكشك الخشبي الصغير بترولي اللون، الكشك (المحطة) حاملاً بعض قوالح الـذرة يشـعلها ليشع منها بعض الدفء في هذا الصقيع.

من هذا الوقت يبدأ عمل صبري إلى السـاعة الثامنـة مساء، الظروف الجوية ليست لها حسابات، وعـدد سـاعات العمل اليومية لا تخضع لأي قانون في العالم.

أصبح هذا الكشك الصغير حياته، كمـا كـان القطـار حياته، ولم لا أليس العمل في هذا الكشك مرتبطـًا بالقطـار الذي وهبه حبه وحياته كلها؟!.

طبيعة عمله بهذا الشكل في بلد وقت العمل لكثير مـن موظفيه لا يستغرق ربع الساعة في اليـوم كلـه، وربمـا لا يذهبون من أساسه، ويوقع لهم من يوقع حضورا وانصرافًا، وتصرف لهم حوافز إجادة، أية إجادة...؟!.

أما صبري فلا يعرف عمله عددا محددا من السـاعات اليومية، ولا هو يطلب الأجـازات القليلـة جـدا بالمقارنـة بالوظائف الأخرى، ولا يريدها. أثبت صبري بـذلك قـدرة

الإنسان ومرونته على تحمل أصعب الظـروف ومعايشـتها والتآلف معها. لم يتظلم من عمله يوما، لم يشـك لأحـد ولا أصابه الملل، على العكس كان يرى نشيطًا مبتسـما. كـان يقابل كل قطار قادم إلى محطته كأنه يرحب به، وكأن القطار يرد له التحية بأحسن منها، يلقي سلامه على السائق وعلـى المفتش، مبديا استعداده لأية خدمة من الخدمات يقدمها لهـم، أو أية مشكلة تعترض سبيل عملهم ليساهم في حلهـا بقـدر استطاعته. كأن الشركة شركته، والقطـار بقضـبانه ملكيـة خاصة به.

ما حاول يوما أن يأخذ أجازه حتى في الأعياد، تصـور أن كل شيء خاص بالقطار لا يمكن أن يكتمل بدونـه، إنـه قلب القطار النابض.

أخذ القطار كل حياته، حتى لو جلس معه أحد ممن يحلو لهم زيارته في الكشك الخشبي المحصن في رماديته، لا يكاد نطاق كلماته يخرج عن العمل والشركة.

حب ما بعده حب، وتفان وإخلاص قلما يجود بمثلهمـا الزمان.

* * * *

من بعد الساعة الواحدة ظهرا إلى الرابعة تبدو المحطة الرئيسية في المنصورة كخلية نحل، لا موضع فيهـا لقـدم، تَرى في كل خط من خطوط الشـركة حركـات بهلوانيـة للركوب، يحشر الناس حشرا، وتُصهر الأجساد في الأجساد، ويحمل سطح القطار عن آخره ركاب السطح، عكـس كـل قطارات الدنيا قانونًا ويصعد إليـه مفـتش ليفـرز تـذاكر الركوب.

خطٌ آخر غير خط صبري سطحه ككل السطوح وعـن آخره، من داخل عربة من العربات يقف في الشـباك تـاجر مواشي يمسك بيده اليسرى شيئًا من سـطح القطـار ليثبـت نفسه، وباليد الأخرى عصا غليظة من الخيـزران الصـلبة الثقيلة معوجة المقبض، وينهال بلا أدنى سبب بكل قواه على الراكبين فوق سطح القطار في كل الاتجاهات، وبلا أي تمييز فتنفجر رؤوس بالدماء وتتورم أجسام، ثم ينزل إلـى داخـل

العربة وكأنه لم يفعل شيئًا، ولم تسمع كلمة واحدة، ولم ير أي أثر لرد فعل من أي نوع. ضمد المجروح جراحـه، وكـتم المتألم آلامه، وانتهى الأمر.

أية نهاية هذه..؟! وأي نـوع هـو نوعيـة الضـارب والمضروب؟! وأي عالم هذا الذي يفقد كل هذه الكتلة البشرية شخصية كل واحد فيها؟ ربما يصبح كل فرد خلية، تنضم كل خلية إلى الأخرى فتتكون هذه الكتلة الكبيرة من البشر، وقـد انصهرت شخصياتهم مع أجسامهم مع جسم القطار ليتكـون بذلك مخلوق عملاق له صفاته الخاصة جدا غير صفات كل فرد على حدة... ربما!.

* * * *

الرجل كبير السن، شعره الأبيض بـه بعـض الشـعر الأسود الذي يوشي أن شعره كان يوما يغطيه كله السـواد، وشارب قصير مرسوم بعناية، وكرافتة تتناسـب مـع لـون القميص مع الجاكيت البني الأنيق يحمل فـي يـده مسـبحة ويتمتم بكلمات التسبيح، يرى الرجل في القطار من سـنوات طويلة تقترب من العقدين، لم يمسه أحد بسوء فقد فهـم مـا يدور في القطار وتحاشى ما يسيء بحصافة وحنكة وخبـرة،

كما أنه على صداقة بعدد ليس بالقليل من القرية الأم.

ركب الرجل قطار الساعة الواحدة، كان القطار كبيـر الحجم والازدحام في هذه الساعة يكون فـي أقـل حالاتـه، يركب الرجل بجانب الشباك جالسا، قام القطار من المحطـة الرئيسية فقفز أحد الطلبة راكبا على الشباك في وجه الرجـل الكبير، خاطبه الرجل بكل رقة وأدب منتقيا كلماته متحيـزا لنبرة صوت لا تنم عن أية حدة أو غضب، أو شيء من هذا القبيل:

- لو سمحت يا ابني، القطر فاضي زي ما انت شايف، عايز أشم شوية هوا حلوين، الجو النهاردة جميل، يا ريـت تنزل في وسط العربية أو تركب في شباك تاني، لو سـمحت يعني.

- أنزل..؟!! أركب شباك تاني..!! إيه رأيك بقى أنـا مش راكب إلا في الشباك ده، واللي مش عاجبـه ينـزل أو يشتري له قطر.

- يا ابني باقولك لو سمحت، باستسـمحك يعنـي، الله يخليك.

- إيه يا ابني يا ابني دي، ولو سمحت، والله يخليك انت

هتغني عليه؟ الحبة بتوعك دول ياكل مـنهم واحـد سـكة، إعرف انت بتكلم مين الأول..!

- طيب، نحب نتعرف، قول بقى يا سيدي. أنـا بـاكلم مين؟

- انت بتتريق يا راجل انت..؟ ما تخلي يومك يفـوت وإلا أخلي نهارك طين النهاردة.

- خليك ذوق شوية، أنا في سن والدك، اعمل يا أخـي احترام للسن، إيه خلاص.. ما بقاش فيه احترام خالص؟!.

- أنا صابر عليك مِ الصبح، ما تتكِتم بقى وخلي نهارك يعدي، انت راجل قليل الأدب صحيح؟

- أنا قليل الأدب؟

- قليل الأدب وهاديك على دماغك كمان.

- ماشي، ماشي.

- ماشي غصب عنك، عالم تخاف ما تختشيش.

وابتلع الرجل أحزانه، ربما لأول مرة يتعرض له هـذا النموذج من البشر. ودارت به الدنيا ولم تقعد.

ما هؤلاء الأوغاد المهازيل؟، ماذا فعلت لهذا الصـفيق

ليوجه تلك الكلمات المسننَة إلى صميم نفسي؟ وماذا يردعـه ليقوم بهذا العمل معي عن قصد وعمد مرة ومرة ومرات؟ ما الذي يمنعه من أن يستعمل يده؟

تذكر الرجل ما فعلته الكلمات القليلة جدا التي تُعد على الأصابع التي نشرتها الجريدة القومية وما فعلته الشرطة على أثرها.

توجه الرجل إلى الشرطة في اليـوم التـالي، وحكـى للضابط الحوار الذي تم بينه وبين الصفيق بالضبط، لم يـزد ولم ينقص، وتسللت من عينه دمعة رغما عنه وختم الرجـل كلامه للضابط:

- إن ما كنتوش قادرين على حمايتنا نقعد في بيوتنا!.

وكان قد حصل على اسم الصفيق بهدوء وبطريقة ذكية.

وفي قسم الشرطة لعق السفيه البلاط بلسانه، وأبدى استعداده ليقبل حذاء الرجل من أية منطقة من مناطق الحذاء للعفـو عنـه، وكان الرجل كريما بحق، وشفع له عند الضابط الذي كان مصرا على تأديب أمثاله به، وكأن ما فعله معه لا يكفي!.

* * * *

رياح جديدة تهب على مصر بأكملها، رياح تحاول إزالة طبقات وطبقات من تراب تكونت عبر آلاف السـنين علـى الوجه الجميل. نوافذ على العالم كانت مغلقة تفتح الواحدة تلو الأخرى ليداعب النسيم من خلالها العملاق النائم من زمـن طويل، يفتح العملاق عينيه للنسيم ليرى من خلال تلك النوافذ حياة أخرى، وحضارة عاتية عملاقة، ومستويات معيشة فوق خيالية بكثير، الخيال الذي كان نائما طوال حِقَب كثيرة حتى أدمن النوم وتكاسل الدم في شراييينه.

اكتشاف البترول واستخراجه مـن المنـاطق العربيـة القريبة المحيطة بنا أشعل النيران في أثواب أثرية بالية للفقر. بدأت المناطق الجدباء تعرف الثراء ويقصدها البشر من كل حدب وصوب ثراء مفاجئًا هائلاً ملفتًا لكل أنظـار الـدنيا... أنظار الدنيا كلها تتوجه نحو الصحراء الغربية!.

بعض المدرسين أبناء القرية أرسلتهم الدولة إلـى دول البترول العربية.

عادوا إلى القرية بعد فترة وجيزة بهيئة أخرى والثـراء تطفح مظاهره طفحا، عادوا بنظرة أخـرى مغـايرة تمامـا للحياة، عادوا يهزون القرية بعنف من كتفيها، يسحبونها مـن

يدها لتفيق من سباتها العميق. حكوا عن الـدخول الخياليـة ومستويات المعيشة ما تجاوز كل خيال هزيل كـان يحولـه صاحبه إلى حكايات على المصـاطب الطينيـة. اصـطحب المدرسون معهم بعض من يهمهم من أقاربهم من الفلاحـين والعمال، ولما رجع هؤلاء تبخر بهـم نـوم القريـة تمامـا وأصابت الناس حمى السفر، فقد عـاد هـؤلاء بـالأموال والأشياء وأكثر من ذلك الحكايات والحكايات عـن الـدخول الأسطورية بأرقامها الفلكية التي تفقد معناها. طغت أحاديـث السفر وحكايات المسافرين من أهل القرية على كل الأحاديث وغزت أحلام الثراء نفوسا كانت تعتبر مثل هـذه الأحـلام ترفًا لا تقدر عليه. أصبح السفر وحكاياته وأساطيره حـديث الساعة على المصاطب وتوارت بـه حكايـات أبـو زيـد وبطولاته لتوضع في متحف الفلكلور الشعبي وتختفـي مـن الواقع الحي.

وتسرب البترودولار إلى القرية حـاملاً معـه أفكـارا جديدة، بدأت القرية تعرف الطموح، وتتكلم عن المسـتقبل، تتمرد على فكرة قدرية الفقر، وتعيد النظـر بالكامـل فـي منظومة حياتها.

أصبح التفكير يسيطر على كل النفوس، أصبح السـفر حلم النوم واليقظة.

سافر البعض ممن لم يكن يحلم مجرد حلم للسفر إلـى المدينة المجاورة.

الوقت ولأول مرة في تاريخ القرية أصبحت له قيمـة. ضن الناس بالوقت الذي كانوا يقضونه فـي القطـار ذهابـا وعودة، من ثلاث إلى أربع ساعات يوميا كان الوقت المهدر دون أدنى التفاتة.

الآن لابد من البحث عن بديل والبدء في استعمال وسائل أسرع للسفر إلى المنصورة.

- دي قلة أصل من الناس – من فات قديمه تاه – بكرة يرجعوا للقطر تاني – يا اولاد الإيه – دي الوقت القطر بقى وحش..؟ يردد صبري.

- يا عم صبري قوم سيب القرف اللي انت فيه ده، هية شغلتك دي شغلانة، دا سجن مؤبد، يا راجل روح سافر لـك يومين، شِم ريحة الدولارات، دي ريحة منعشة قوي ترجعك عشرين سنة في لحظة واحدة، ترجع لك عمرك اللي دوبتـه في القطر والمحطة.

- أسيب المحطة..؟ أنا أسيب المحطة، انـت فـاكرني قليل الأصل زيك لما أنا اسيب الشركة وغيري يسيبها أمـال تشتغل الشركة ازاي؟!

- يا عم الزمن اتغير، ما تبقاش بتاع امبـارح، خليـك بتاع النهاردة سيب الهبابة اللي انت قاعد فيها دي واعملـك قرشين حلوين في دول الخليج. اشتري نفسك يا عم صبري.

- يا عم انت تعبان ليه.. ليه، أنا مستريح كدة، بكرة ها تشوف، دول قرشين ها يضيعوا، الفلـوس بتطيـر، وبكـرة ترجع ريمة تاني لعادتها القديمة، والناس دي ترجع غصـب عنها للقطر، فُوق انت!.

- عم صبري فُوق بقَة، الواد بن سـتيتة اللـي كـان عربجي سافر.. أقل من سنة اشتري عربية وبيشـتغل بيهـا على خط القطر بتاعك، مش عارف يحوش الزبـاين عـن دماغه، وبيهبر هبر، العربجية اتحركوا وغيروا حياتهم وانت قاعد هنا ، لازم تتغير يا صبري.

- بصراحة أنا بحب شغلي وما اقدرش أستغنى عنـه، معقول، معقول أسيب القطر، المحطـة، الشـركة، لا لا لا يمكن.

- واللهِ أنا قلت اللي يخاص ضميري – انـت حـر – سلامو عليكم.

* * * *

ثوب الصحة والعافية ينحصر عن صبري رويدا رويدا دون أن يفطن لذلك.

الوقت الطويل الذي يقضيه في البرد في هـذا الكشـك الصغير ـ خصوصا قبيل الفجر وبعده ـ تسلل إلى عـرين صحته ودك حصونها، مقاومة البرد بملابس فوق بعضها أو إشعال بعض قوالح الذرة ما كانت كافية لدفع خطره.

تغير لونه وهو لا يصدق، بل يكذب كل ما يلفت نظـره إلى ذلك، كان يعتقد أن المرض لا يجرؤ على مهاجمته، إنه لم يعرف المرض يوما في حياته.

بدأ وجه الحياة ومظاهرها في التغير، الركاب ينسحبون من القطار، ربع الساعة كان وقتًـا كافيـا جـدا للوصـول بالسيارات إلى مشارف المدينة، رويدا رويدا ينسحب الركاب بتزامن غريب مع انسحاب صحة صبري.

الكُشك الذي كان عامرا بحركة بيع التذاكر أصبح خاليا

إلا من بعض المتسكعين الذين يقتلون الوقت مع صبري.

صبري يتغير مزاجه في كشكه وكأنـه تـاجر بـارت تجارته.

يتزايد انصراف الركاب عن القطار يوما بعد يوم بمعدل غريب، كأنه كان سجنًا فُتحت أبوابه كلها فجأة فهجـره كـل السجناء، وما تبقى به غير القائمين على أموره.

يرى القطار خاليا، لأول مرة في تاريخه توجد به مقاعد خالية، لم يبق لثعالب الزحام ومستغليه وجـود، ولا لوجـود نمور الزحام الورقية داعٍ، أصبح للوقت قيمة ضن بها الناس على المشاغبات.

يدخل القطار إلى القرية الأم ويخرج ولا يؤبه له، لم يعد دخوله وخروجه يلفت الأنظار بالجموع الهائلة التـي كانـت تركب وتهبط، أصبح القطار يدخل القرية ويخرج منها بـلا ضجيج كدخول وخروج الغرباء.

الشركة تحقق خسائر متزايدة، بدأت تحجـم أعمالهـا، بعض القطارات تُرى جيئة وذهابا خاليـة تمامـا. رفعـت الشركة بعض خطوطها، ألغتها تماما من الخدمة، خطًا تلـو خط، لكن ما زال خط صبري في الخدمة.

الخوف يملأ قلبه، يخشى أن يأتي الدور علـى خطـه، وكيف لا وهو يرى الشركة تستأصل خطوطها وكأنها مرضا سرطانيا أصابها. يخشى أن يلغى الخط الأخير من الشـركة فينتهي عمله ويطرد من الجنة، جنة هذا الكشك الصغير.

تبدأ الشركة تقليص العمل على الخط الأخيـر، ألغـت نصفه الأخير، مستوى صحة صبري يتقلص إلـى النصـف أيضا بتوافق غريب. تبدأ الشركة إلغاء بعض الرحلات، فبعد أن كانت ست رحلات ذهابا وعودة أصبحت ثلاث رحـلات كإجراء آخر لخفض النفقات.

صبري يشعر بالغثيان ولأول مرة في حياته، يسقط على الأرض، في ذهول كل من تصادف وجودهم بجانبـه. فتـوة الفتوات المتدفق حيوية ونشاطًا وقوة يسقط هكذا!!

في عربة ينقل صبري إلى المستشـفى،... لـم ينقـل بالقطار!.

بدأ الوعي يعود إلى صبري، حاول أن ينهض...

- هييه أنا فين؟... القطر زمانـه جـي... إيـه اللـي حصل.... فيه إيه بس قولوا لي... قال صبري وهو يحـاول النهوض.

- خليك مستريح، ما تقلقش على القطر، أكيد الشركة ها تتصرف انت مشرفنا شوية، تغيير جو، حقك يا أخي!.

- لو سمحت يا دكتور، عشان خاطري سـيبني أروح شُغلي، أكيد حاجة بسيطة عندي، بسيطة قوي، أنا عمري ما عييت، المحطة لوحدها يا دكتور.

- الشركة عندها موظفين كتير لازم تشـوف صـحتك الأول، الصحة أهم حاجة يا راجل، انت أهم حاجة عندنا.

وينتفض من سريره، تدور رأسه فيعود إلى سريره في بكاء مرير، يرى الأمر جادا لا هزل فيه!.

* * *

كان المرض قد تمكن مـن صـبري، نشـر خيوطـه العنكبوتية حول فريسته وحانت فرصـته فـانقض عليهـا، وتنحدر صحة صبري بشكل سريع جدا، وبشكل ملحوظ جدا، كالسرعة التي ينحدر بها مستوى الشركة وعدد ركابها.

بدأ صبري نفسه يلاحظ ذلك لكنه ما فقد الأمل أبدا فـي العودة على الإطلاق لمعشوقه القطار.

تَخْفُتُ شمعة حياته رويدا رويدا، تتآكل كتلـة الشـمعة

ويداعبها هواء المرض، يتأرجح ضوؤها الواهن يمنة ويسرة في محاولة واهية للمقاومة، ويختفي ضوء الشمعة إلى الأبد!.

إنها تصريف الأقدار، يوم مات صبري مات القطـار، مات المحب والمحبوب، لا تدري أمات هو حزنًا على القطار أم مات القطار حزنًا على عليه.

انتهت قصة حب غريبة بطلاها ليسا كالعادة آدم وحواء. كان بطلاها آدم والقطار...!!.

الشركة تسرع برفع قضبان القطار كميت آخر حقوقـه عليها الإسراع بدفنه في أعماق النسيان.

أصبح القطار كخيل الحكومة آخر خدمته رصاصة في رأسه، وإلقاء جثته حيثما اتُفق، مع أن القطار ليس خيلاً مـن الخيول ولن تتعفن له جثة – إنه تاريخ! – من يجرؤ علـى دفن التاريخ؟!

الشركة تدفن التاريخ، تمحو سـطوره، تطمـر آثـاره، تمحو أي إشارة له في سجل الزمان، تهيـل التـراب علـى النافذة الوحيدة التي ظلت لأجيال وأجيال، النافذة الوحيدة التي تطل منها كل هذه القُرى على العالم، بدلاً من أن يعتني بهـا وتُصنف وتوضع في متحف التاريخ شـاهدا علـى زمنهـا،

ودليلاً عليه.

سارعت الشركة بهمة لم تعرفها طوال تاريخهـا إلـى محو القضبان وكل أثر كان للقطار، ووقف الفلاحون الـذين يزرعون الأرض الموازية للرصيف كالقطط التي تتـربص بأي فأر شارد، كلما رفعت الشركة مسافة مـن أمـام تلـك الحقول ضمها الفلاحون على عجل كأنهـا سـتخطف منهـا واستزرعوها بسرعة لا مثيل لها.

وضاع كل أثر للقطار.

بدلاً من أن يكرم التاريخ يسحق بالنعال، وبدلاً مـن أن يوضع القطار في متحف للتاريخ، وضع في القمامة، لم يرحم حيا أو ميتًا.

* * * *

قوي غلابة تشد ابن القرية إليها رغما عنه، لم يسـتطع مقاومتها فترك الحضارة الأوروبية بكل مكتسباتها وعنفوانها، وما تقدمه من تسهيلات هائلة لحياة البشر، ترك الحضارة في أعلى قمة لها بجاذبية هائلة على مهد الحضارة الأول.

كان يحلم بتلك القرية الموغلة في البعد عـن عصـرها

وعن كل ما يربطها به.

منظر القطار وبموازاته أعمدة تليفون تتكاثر أسـلاكها، وحمام يطير في سلامة ودعة، ونسـمة صـبح منعشـة لا توصف، وسحابة بيضاء كالثلج الأبيض تجري وسط سـماء صافية وحيدة تهرب من زرقة طاغية تطاردها، وذكريـات هائلة لا حصر لها، أعظم ذكريات حياته وأبقاها في ذاكرتـه ولدت وترعرعت في هذا القطار. لم يكـن يسـتطيع تخيـل قريته بلا قطار فهي بدونه بناء أصم بلا نافذة واحدة لضـوء أو هواء.

كان يحلم هناك برؤية القطار، بوقوفه في محطة قريتـه ليتحسس القطار بعينين حانيتين، وقوفه على المحطة وقـوف على شاطئ الذكريات، ذكريات حية تغذي وجدانه وتتغـذى به.

لا يمكنه تخيل وجود قريته دون وجود القطار، فكيـف يتخيل جميلة الجميلات حليقة الرأس كالصلعاء. إنه ملامـح القرية، قسماتها، إنه الرأس منها، والعيون من رأسها!

عاد الشاب إلى قريته، إلـى تاريخـه، ذكرياتـه إلـى الماضي الجميل.

أهذه قريتي..؟!

ما قريتي وقد تبخر التاريخ، وطمرت النوافذ تحت أثقال التراب.

لماذا دفنتم قريتي، لماذا اقتلعتم شعرها، وفقأتم عيونها، وقطعتم شريانها؟ لماذا تركتموها ثكلى ووأدتـم ابنهـا فـي مقابركم الواسعة اللامحدودة – كل هذا الظلم؟!!.

العالم الثالث بحق مقبرة واسعة فيها يدفن كـل شـيء، يعدم كل شيء!!.

تمت

* * * *